

ثلاث سنوات

أنطون تشيخوف



روايات الهلال

REWAYAT AL-HILAL

نصدر عن مؤسسه « دار الهلال »

العدد ٢٦٣ - سبتمبر ١٩٨١ - ذو القعدة ١٤٠١

No. 393 - September 1981

رئيس مجلس الإدارة: **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير: **الدكتور حسين مؤنس**

سكرتير التحرير: **موسى عيسى**

الاشتراكات

فيه الاشتراك السنوي - ١٢ عددا - في جمهورية مصر العربية مصر المريسة جنيهان مصريان
بالبريد العادي • وبلاد اتحادى البريد العربى والايرقى وباكستان ثلاثة ونصف
جنيه مصرى بالبريد الجوى • وفى سائر أنحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة
عشر دولارا بالبريد الجوى •

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج • م • ع • بحواله بريديه غير
حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لأمه مؤسسة دار الهلال وبصاف رسوم البريد
المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب

اسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من « روايات الهلال » الشهرية
اعتبارا من شهر يناير عام ١٩٧٩ :

بسمير ٣٠ قرشا فلطارى، فى مصر

سوريا : ٣٠٠ ق • س • ثلاثمائة فرنس سوري •

لبنان : ٢٥٠ ق • ل • مائتان وخمسون قرشا ليمانيا •

الأردن : ٢٥٠ فلسا • مائتان وخمسون فلسا أردنيا •

الكويت : ٣٥٠ فلسا • ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتية •

العراق : ٤٠٠ فلس • أربعمائة فلس عراقى •

السعودية : ٤٠٠ ريال • أربعة ريالات ونصف ريال •

الإدارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة •

تليفون : ٢٠٦١٠ • عشرة خطوط •



روايات الهدى

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

الفلاف بريشة الفنانة
تماضر محمد تركي

ثلاث سنوات

بقلم

أنطون تشيخوف

ترجمة

فؤاد دوارنة



دار الملال

المؤلف

- ولد أنطون بافلوفيتش تشيخوف فى ١٧ يناير سنة ١٨٦٠ ، وكان جده من رقيق الأرض ، وصفه تشيخوف بقوله :
« كان جدى يتلقى ضربات سياط السادة من النبلاء ، وكان أصغر موظف فى الضيعة يستطيع تحطيم رأسه ، ومع ذلك كان يقسو فى جلد والدنا ، وكان والدنا ، يقسو فى جلدنا » .
وقرب نهاية هذه الرواية (ص ١٢٢) سنسمع بظلمة يصف جده ووالده بنفس الكلمات تقريبا .
- أمضى تشيخوف طفولة تعسة ، ولم يكد يقترب من سن الشباب حتى وجد نفسه مسئولاً عن إعالة الأسرة كلها ، فضلا عن دفع مصاريف دراسته للطب ، فأرهق نفسه فى إعطاء الدروس الخصوصية والتأليف .
- أتاح له عمله بالمستشفيات فرصة الاتصال المباشر بالفلاحين مما وضع أثره فى كتاباته ، وفى اهتمامه بإصلاح أحوالهم التعسة .
- قام عام ١٨٩٠ برحلة شاقة الى جزيرة « سخالين » ، حيث درس أحوال المسجونين على الطبيعة وكتب عنهم بحثا ضخما أحدث ضجة كبيرة .
- كتب أربع مسرحيات وعدة روايات ، ولكنه يعتبر رائد مدرسة أصيلة فى فن القصة القصيرة ، اذ وجهها الى تصوير موقف دافئ من الحياة دون اهتمام كبير بالحبكة على العكس من مدرسة « موباسان » الفرنسى .
- توفى فى ١٥ يوليو سنة ١٩٠٤ .

مقدمة

تعتبر رواية « ثلاث سنوات » لتشيخوف نموذجا مصفرا من رواية « أسرة بادنبروك » للكاتب الالماني توماس مان ، وان كانت قد كتبت قبلها بستة عشر عاما ، وقبل الجزء الأول من رواية « أسرة فورسايت » للكاتب الانجليزى جون جالزورثى باحدى عشرة سنة . ففى قصة « ثلاث سنوات » التى لا تزيد على مائة وثلاثين صفحة ، قدم لنا تشيخوف بأسلوبه المركز الشبيه بالحكم الابيجرامية ، الاحساس بحتمية الاختلاف بين الاجيال المتعاقبة ، وهو نفس الاحساس الذى عالجه كل من توماس مان وجالزورثى فى حجم اكبر بكثير .

وتتركز قصة تشيخوف حول زواج « لابتيف » ، الابن الاصفر لاحد التجار الاثرياء ، بابنة طبيب باحدى المدن الصغيرة . وموضوع قصة الحب شبيه بموضوع « افجينى أونجين » للشاعر الروسى الكساندر بوشكين ، مع قلب الأدوار - فالرجل فى « ثلاث سنوات » هو الذى يجب بشغف فى البداية ، والمرأة عند النهاية ، ولكن الصورة التى يرسمها تشيخوف لثلاث سنوات من زواجهما تتطلع الى الامام والى الوراء ، فترينا من أين جاء ، وماذا سيصيحان فى الأيام القادمة ، هما ومن يحيط بهما فى بيئة موسكو ، فضلا عن بيئة المدينة الاقليمية .

والحذق الرائع الذى كتبت به هذه الرواية البارعة جدير بالدراسة والمقارنة بروايتى توماس مان وجالزورثى للتعرف على الاختلافات

القومية والفنية بين هؤلاء الكتاب الثلاثة ..

فتشيخوف ، مثل توماس مان ، يرى أن هناك عملية تدهور فى حياة الأسرة التجارية ، وثمة أوجه شبه واضحة بين الكاتبين مرجعها الى « جو الآراء السائدة » فى العصر ، والى نماذجهما المشتركة من بين مؤلفات الطبيعيين الفرنسيين ، وبصفة خاصة اصرارهم على قوة العامل الوراثى ، ثم موقفهما الشاك المتسائل من البورجوازية . والمؤلفان بعد ذلك خاليان من روح المجاملة الموافقة لروح العصر ، تلك التى وجد تشيخوف مثلا عليها فى رواية « أسرة بولونتسكى » لسينكيفكز ، وقد قرأها حوالى عام ١٨٩٥ ، ووصفها بقوله :

« .. انها فطيرة بولندية بالجبن والزعفران مما يقدم فى عيد الفصح .. لقد استلهمت من رواية بورجيه : « مدينة عالمية » ومن روما ، ومن الزواج .. وهدف الرواية هو هدهدة البورجوازية لتستغرق فى النوم برفقة أحلامها الذهبية . لتخلص لزوجتك ، ولتصل معها فوق كتاب الصلوات ، ولتكسب مالا ، ولتحب الرياضة ، وسيكون كل شئ على ما يرام معك فى هذا العالم والعالم الآخر . ان البورجوازية شديدة الهيام بما يسمى بالنماذج الايجابية ، والروايات ذات النهايات السعيدة طالما كانت تنافقها بفكرة انه من الممكن أن يكسب الانسان المال ويحتفظ فى الوقت نفسه ببراءته ، أى يكون وحشا وسعيدا فى ذات الوقت » .

من الواضح ان تشيخوف لم يكن يحب البورجوازية ، ولكنه يفسر انهيار هذه الأسرة التجارية بذاتية أقل من توماس مان ، بل لعله فعل ذلك برؤية اجتماعية أعمق . فالمؤلف الالماني لا يستطيع أبدا أن يبتعد عن مشكلة الفنان ، فهو فى نظره نموذج للنتاج المتأخر ، الذى نضج أكثر مما ينبغى ، ونضجه غير سليم من الناحية البيولوجية اذا ما قورن بالبورجوازية الطبيعى ، وعلى

ذلك فهو يجعل أسرته التجارية « تنهار » وتتحول الى فنانيين ، ثم تفنى فى النهاية . أما أسرة « لابتيف » التى يقدمها تشيخوف فلها تاريخ مختلف . فالرجل العجوز لا يختلف عن نمط رجال الأعمال الذين يردون فى الأدب البروتستانتى ، فهم راضون عن تصرفاتهم بأسلوب معوج ، وشخصياتهم مهما بدت ظاهرة التدين ، فهى تتكامل عادة حول غريزة تأكيد الذات . ولابتيف العجوز طاغية فى أسرته ، واله صفيح فى نظر نفسه ، متعته الوحيدة فى الحياة ممارسة القوة والسيطرة . وهو لا يتميز بقدره خاصة ، ولكنه فى صباه ، وفقا لما يقوله ابنه ، اتيحت له فرصة بداية معينة ، والتاجر يستطيع أن يكون ثروة كبيرة بطريقة تكاد تكون آلية ، « فالنقود تأتية وحدها » . وهى فى هذه الحالة لا تقل عن ستة ملايين روبل ، كلها من أرباح تجارة الجملة فى الأقمشة والأشرطة والأزرار ونحو ذلك .

ان لابتيف العجوز لا يغادر متجره أبدا ، لا لشيء الا لانه يستمتع باصدار الأوامر لمساعديه من حوله والسخرية بالزبائن ، « وهو رئيس شرف فى الكنيسة لانه يستطيع أن يتحكم فى أفراد الجوقة ويجعلهم يجثون على ركبهم أمامه » - بل انه ليقف فى الكنيسة وينقد القس على مشهد من الجميع لانه لم يؤد كل طقس من الطقوس وفقا لمشيئته ، وهو كذلك وصى على احدى المدارس لسبب مشابه . ان ما يحبه التاجر الثرى ليس التجارة بل ممارسة النفوذ ، « ومتجركم ليس مؤسسة اقتصادية ولكنه حجرة تعذيب » .

وحيث يعود لابتيف الشاب ، بعد غيبة استمرت بضعة أشهر ، يرى الصبية يجلدون ويلكمون فى أنوفهم كما كان يحدث له وهو غلام . وحين يكبرون ، كما يقول ، سيصنعون الشيء نفسه مع من يصفرونهم . ان العمال الخمسين يستغلون بلا رحمة ، ويعيشون فى ظروف بادية السوء بصورة غريبة ، حتى لقد أصبحوا حديث السوق

كئها . فهم يسكنون فى قبو - أو « بدروم » - بيت السيد ،
مكدسين كل ثلاثة أو أربعة فى حجرة ، ويأكلون من طبق واحد ،
رغم أن لكل منهم طبقه الخاص به ، وذلك لأنهم تنطبق عليهم
القاعدة القائلة بأن الحريات المسموح بها نظريا قل أن تجد من يجرؤ
على ممارستها ، بل هى لا تجد مثل هذا الشخص أبدا . فهم مثلا ،
لايتزوجون ، وقلما يخرجون فى المساء ، لأنهم يجب أن يعودوا قبل
حلول الساعة التاسعة ، ويعلمون أن السيد العجوز سيلاحظ فى
الصباح التالى أن كانت رائحة « الفودكا » تفوح منهم أو لا . أنهم
أذلاء الى درجة الخنوع والنفاق ، ولذلك ففى كل منهم بذرة طاغية
مستبذ متى أتاحت له الفرصة .

وما يهاجمه تشيخوف فى هذه الرواية هو تلك التقاليد القبلية
العتيقة التى تتيح لرب الأسرة أن يمارس سلطاته بلا حدود وبأسلوب
خال من الإنسانية . وإذا كان رب الأسرة هنا فى بيئة تجارية ، فقد
سبق لتشيخوف أن قدم فى قصص أخرى نماذج لرب الأسرة
المتجمعة فى البيئة الريفية ، وهو فى الحالين ، مثل نموذجى صارخ
على أن السلطة غير المحدودة تنتهى دائما الى الفساد .

وأبناء الجيل الحاضر من أسرة لابتييف لم يتصرفوا بسبب ازدياد
انتشار الاحساس بالحرية فى العالم بشكل عام ، كأسلافهم ، فهم
يعلمون أن ملاك الأرض كانوا يجلدون جدهم ، وأن جدهم بدوره
كان يجلد أباهم ، ولكنهم هم أنفسهم لم يستطيعوا أن يهتموا ووقع
السياط بسعادة وهم متأكدون أن دورهم آت ليجلدوا أبناءهم
وأتباعهم ، بل سمم الخوف حياتهم . لقد حملتهم أمهم وهى خائفة .
كانت فى السابعة عشرة حين زوجها رجلا فى الخامسة والأربعين ،
فكانت ترتعد لكل التفاتة من رأسه . وكان السوط هو معلم هؤلاء
الأبناء ، وملاهم السأم من صلوات الأسر والكنيسة ، وبدأوا يعملون

فى المتجر منذ سن الثامنة ، وحتى حين الحقوا بالمدارس الثانوية ظلوا يعملون فيه نصف اليوم .

ولا شك ان تشيخوف قد عانى جانبا من هذه التجربة ، وكانت النتيجة - كما يقول لابتييف - القضاء على الرغبة فى الحياة فى نفسه ، فقد كان يعانى ، كما نستطيع ان نقول الآن ، احساسا بالنقص ، حتى فى مواجهة البوابين ورجال الشرطة . اما شقيقه ، فحين تفشل محاولاته غير الواعية لاختفاء تعاسته خلف قنّاع من الزهد فى المظاهر الاجتماعية ، فانه يتحول الى حطام منهيار الاعصاب ، ويتمنى لابتييف لو أن « أسرتهم التجارية المرموقة تنتهى بوفاتها » .

وحيثما كان لابتييف لا يزال طالبا فى الجامعة شجعه صديق له على القيام بمحاولة للاستقلال ، فاستأجر مسكنا خاصا به ، وقلل نصيبه فى العمل بالتجر الى اقل حد ممكن ، وان ظل يتقاضى منه الفين وخمسائة روبل فى الشهر . وظل حتى بلغ الرابعة والثلاثين من عمره يعيش فى موسكو حياة أعزب مرح مع أصدقاء أذكىاء وعشيقة ، وسط بيئة ذات ميول فنية واهتمامات موسيقية ووجهة نظر فردية شأن طبقة المثقفين ، رغم ان دخله الكبير كان يسمح له أن يكون كريما فى عطايه .

لم يكن له دين ولا هدف معين فى الحياة ، يعيش متنقلا من نزوة الى أخرى ، وقد سيطر عليه خوف غامض غريب . وها هو ذا يجب الآن بعنف ، ولكن علاقته ب « جوليا » كانت مسممة منذ البداية بفكرة ترجع الى حد كبير الى انعدام ثقته بنفسه ، وخلصتها انها لم تقبل الزواج منه الاطمعا فى ماله ، مع أن حقيقة الأمر انها تزوجته لتتخلص من أبيها وتعيش فى موسكو . وحيثما بدأت تحبه فعلا بعد مرور ثلاث سنوات ، كان حبه لها قد مات ، وهناك اشارة الى أن مثلث

الكبت المألوف فى طريقه الى التكوين ، بالاشتراك مع أقرب أصدقائه
- « يارتسييف » - الذى يحب جوليا .

وفى هذه الأثناء كان لابتيف قد أصبح رئيس المؤسسة التجارية ،
ووجد نفسه سجين الثروة التى يمكنها أن تهيه الحرية . « كان
مقتنعا بأن الملايين والعمل ، اللذين لا يكن لهما أقل حب ، سوف
يفسدان حياته ، ويصنعان منه عبدا مرة أخرى ، والى الأبد .
وأخذ يتصور كيف سيألف مكانته بالتدرج ، وكيف سيتقمص شيئا
فشيئا دور مدير المؤسسة ، ويجد كل ما فيه من حساسية يتبدل ،
وتتقدم به السن ، ثم فى النهاية يموت حقيرا ميتة النكرة الوضيعة
المريرة ، بعد أن ظل سنوات عذابا لكل من حوله » .

ومع ذلك فبوسعه أن يقوم بمحاولة للفرار . « وكان منزعجا
من نفسه ومن هذا الكلب الأسود المستلقى فوق الأحجار عند قدميه ،
لأنه لم يجر هاربا الى الحقول والغابات ، حيث يستطيع أن يكون
حرا وسعيدا . وكان من الواضح أن الشيء نفسه هو الذى يمنعهما
هما الاثنان من مفادرة الفناء ، قوة العادة لا أكثر ، هى التى تجعلهما
يهادنان الأسر ، ويقبلان حياة العبيد » .

ما السبب الكامن وراء ذلك الاحساس بالكبت الذى نجده فى كل
مكان عند تشيخوف ؟

هل هو ، من وجهة نظره ، شىء تمنحه مع الحياة نفسها ، شىء
ميتافيزيقى ، أو أنه نتيجة لسوء التوافق الاجتماعى ، فيمكن فى
هذه الحالة تغييره بقدر كاف من جهد الإرادة ؟ ..

من الواضح أن السبب فى هذا الكبت قوة تؤدى دورها ، على
أقل تقدير ، خلال ظروف اجتماعية معينة ، وقد استطاع فى هذه
الرواية أن يرسمها بوضوح بالنسبة لطبقة التجار .

والرواية باعتبارها صورة للسلوك الانسانى مقنعة وتفيض

بالحيوية ، كما أنها تقدم كثيرا من خصائص تلك الطبقة التي كانت
أخذة في الانقراض وقت كتابة الرواية ، وكانت بعض ملامحها
الخارجية قد زالت ، أو في طريقها للزوال من موسكو في ذلك
الوقت ، كالملابس مثلا ، ولكننا نلحظ في الرواية مع ذلك تلك الآداب
المراعاة في طقوس الكنيسة ، والتهكمات والتلميحات وبعض
التعبيرات الخاصة ، وآداب السلوك المتأنق - وبصفة خاصة في
ذلك الاستقبال الوقور لعروس الابن في بيت الأسرة في احتفال
دينى متقن - ثم عدم وجود دفاتر حسابات في المتجر ، وبالتالي
عدم وجود الادارة الموضوعية التي تعتمد على العقلانية الصارمة على
النحو المألوف في المؤسسات التجارية الغربية التي في مثل هذا
الحجم .

عن كتاب « روسيا في ادب تشيخوف »

تأليف : و . ه . برافورد

كان الظلام لا يزال مخيما ، باستثناء بعض الأضواء المنبعثة من النوافذ هنا وهناك ، ومن القمر الشاحب وهو يرتفع هناك بعيدا خلف الثكنات عند نهاية الشارع . جلس لابتيف على مقعد خشبي امام بيته ، ينتظر انتهاء صلوات المساء فى كنيسة « بطرس وبولس » . بعد قليل ستمر « يوليا سيرجيفنا » فى طريق عودتها من الكنيسة الى بيتها ، وسوف يتحدث اليها ، وقد يمضى المساء كله معها . .

ظل ينتظر أكثر من ساعة ، وعادت به أفكاره الى مسكنه فى موسكو ، وأصدقائه هناك ، وخادمه « بيوتر » ، والمكتب فى حجرة مكتبه . وأخذ يحدق فى الأشجار الداكنة الساكنة ، وبدا له غريبا أنه بدلا من أن يستأجر منزلا ريفيا فى « سوكولنيكى » يعيش فى هذه المدينة الاقليمية الصغيرة ، حيث تثير قطعان الماشية سحبا من الفبار وهى تتجول فى الصباح والمساء خلف أبواب رعاتها المصنوعة من قرون البقر . وانتقل تفكيره بعد ذلك الى المناقشات التى لا تنتهى مع أصدقائه فى موسكو حول امكان الحياة بهدوء دون حب ، وحول أن الحب ليس الا مرضا نفسيا ، وأخيرا كيف أن الحب شئ لا وجود له ، وأن الأمر لا يعدو ان يكون انجذابا جسديا بين الجنسين . . وهكذا . وملاه الحزن وهو يتصور ان احدا لو سأله الآن عن الحب ، لما عرف ماذا يقول له .

انتهت الصلاة ، واندفعت الجموع خارجة من الكنيسة . وأخذ

لابتيف يرمق ، فى شىء من الحذر ، الأشباح السوداء المتحركة فى الشارع . ها هو ذا القسيس يتعد عن عربته ، وتتوقف أصوات الأجراس ، والأضواء الخضراء والحمراء المعلقة فى برج الكنيسة احتفالا بعيدها بدأت تنطفئ واحدا اثر الأخرى ، ولكن الشارع ما زال ممتلئا بالناس مع ذلك ، بعضهم يمضى فى طريقه ، والبعض الآخر يقف ليتحدث تحت نوافذ المنازل . وأخيرا سمع لابتيف صوتا مألوفاً له ، وتلاحقت خفقات قلبه . ولكن يوليا سيرجيفنا لم تكن وحدها ، كانت بصحبة سيدتين أخريين . فقال بهمسة يائسة :

— « آه يا عزيزتى ، آه يا عزيزتى ! هذا فظيع ! » .

توقفت عند ناصية الشارع لتودع رفيقتها ، وحين رفعت رأسها لمحت لابتيف الذى قال :

— « كنت فى طريقى لزيارة والدك ؟ هل هو فى البيت ؟ » .

وأجابت :

— « أعتقد ذلك ، فما زال الوقت مبكرا على موعد ناديه » . .

كانت الحدائق تحف بالشارع من الجانبين ، وفى أحد الجانبين وتحت ضوء القمر كانت أشجار الليمون تلقى بظلالها القاتمة على البوابات والأسوار المحيطة بها ، ومن وسط الظلمة انبعثت همهمات نسائية خافتة وضحكات وتوقيع هادىء على « بلالايكا » . اثارته هذه الأصوات والرائحة المنبعثة من أزهار الليمون والأعشاب ، فود لو طوق رفيقته بذراعيه وأمطر وجهها ، ويديها ، وكتفيها بالقبلات ، وألقى بنفسه باكيا عند قدميها يخبرها كم ظل ينتظرها . كانت تنبعث منها رائحة بخور عالقة بكيانها ، عادت به الى ذكريات الأيام التى كان فيها هو أيضا مؤمنا بالله ، يحضر صلوات المساء ، ويتوق للحب الشاعرى الطاهر . وكان يدرك أنها لا تحبه ، لذلك أحس أن السعادة التى كان يحلم بها وقتذاك لن تتحقق أبدا .

تحدثت بعطف عن مرض شقيقته نينا فيودروفنا . فمنذ شهرين أجرت نينا عملية سرطان والجميع يتوقعون الآن أن تتعرض لنكسة . وقالت يوليا سيرجيفنا :

– « لقد ذهبت لزيارتها هذا الصباح ، وأعتقد أنها قد تغيرت – حقا انها لم تعد نحيلة كما كانت فى الأسبوع الماضى ، ولكنها ذابلة بعض الشيء مع ذلك » ..

وقال لابتييف :

« حقا ، انها لم تتعرض لنكسة فعلية ، ولكنى أستطيع أن أرى مع ذلك انها تزداد ضعفا كل يوم ، أراها تذوى أمام عيني ، ولا ادرى حقيقة ما بها » ..

وبعد لحظة من الصمت عادت يوليا سيرجيفنا تقول :

– « من يستطيع أن يتصور كيف كانت حتى عهد قريب ، فى أتم صحة ، ممثلة الجسد ، محمرة الخدين . وكان الجميع هنا يسمونها « فتاة موسكو » . شد ما كانت تضحك ! وفى أيام العطلات كانت ترتدى ثياب الفلاحات ، وكانت تلائمها الى أبعد حد ! » .

كان الدكتور سيرجى بوريستش لا يزال بالبیت ، وهو رجل بدين أحمر الوجه ، يرتدى سترة طويلة تصل الى ما تحت ركبتيه وتجعله يبدو قصير الساقين . وكان يذرع حجرة مكتبه جيئة وذهابا وقد وضع يديه فى جيوبه ، وهو يهمهم لنفسه لحنه المعتاد « رو – رو – رو – رو ! » . وكان سالفاه الرماديان مشعثين ، وشعره مهوش وكأنه استيقظ من النوم لتوه . وكذلك حجرة مكتبه ، الوسائد على الأريكة ، وأكوام الورق القديمة فى أركانها ، وقلبه العجوز تحت المائدة يبدو مشعثا ومتجهما كالطبيب نفسه ..

وقالت ابنته وهى تقتحم حجرة مكتبه :

– « مسيو لابتييف يرغب فى رؤيتك » ..

ودندن الطبيب وهو يتجه الى حجرة الاستقبال :
- « رو - رو - رو - رو » ، ثم قال وهو يصفح لابتيف :
« أهلا بك ، ما هي الأخبار السعيدة ؟ » .

كانت حجرة الاستقبال مظلمة ، ووقف لابتيف ممسكا بقبعته في يده ، وأخذ يعتذر عن تطفله ، ويسأل عما يمكن عمله لمساعدة شقيقته على النوم أثناء الليل ، ولماذا تزداد نحولا ، وبينما هو يسأل الطبيب ، كان يضايقه احساس غير مريح بأنه سأل الأسئلة نفسها أثناء زيارة الطبيب الصباحية . وقال :

- لعل من الضروري أن نستدعى اخصائيا من موسكو ،
ما رايك ؟ » .

تهد الطبيب ، وهز كتفيه بلا مبالات ومد ذراعيه ..

كان من الواضح أنه يشعر بأنه أهين ، فقد كان شديد الحساسية بشكل عام ، يتصور دائما أن الناس لا يثقون به ، ولا يقدرونه حق قدره ، ولا يحترمونه كما ينبغي . مرضاه سيئون استفلاله ، وزملاؤه يحقدون عليه ، وكان يضحك من نفسه بمرارة ، ويقول ان الحمقى من أمثاله يعرضون أنفسهم للاستهانة بشأنهم ..

أضاءت يوليا سرجيفنا المصباح . واستطاع لابتيف أن يدرك من ملامحها الفاترة وحركاتها المسترخية أنها مرهقة من الصلاة بالكنيسة ، وأنها بحاجة للانفراد بنفسها . وجلست على الوسادة وقد وضعت يديها في حجرها وسرحت مع أفكارها ..

كان لابتيف يعلم أنه لم يكن وسيما ، وهو يدرك ذلك الآن بشكل ملموس . كان أميل للقصر ، ضعيف البنيان ، محمر الخدين ، وشعره بدأ يخف من أعلى حتى أصبح رأسه شديد الحساسية للبرد . وكان وجهه خاليا من ذلك السحر البسيط الذي يجعل حتى الوجوه العادية تبعث السرور في نفس من يراها ، وكان

يضطرب فى حضرة النساء ، ويسرف فى الثرثرة ، ويتكلف فى سلوكه . وهو الآن يحتقر نفسه من أجل ذلك . كان يعلم أنه لابد من أن يبدأ حديثاً ما إذا لم يشأ أن تشعر يوليا سيرجيفنا بالملل من صحبته . ولكن فيم يتحدث ؟ .. مرض أخته مرة أخرى ؟

بدأ يتحدث عن الطب ، وقال كل الأشياء المعتادة ، وأوصى بأن يحافظ الإنسان على صحته ، ثم أعلن أنه منذ زمن طويل يدرس فكرة افتتاح فندق فى موسكو ، وأنه قام بالفعل بعمل التقديرات اللازمة لذلك . « والعامل الذى سيحضر لقضاء ليلة فى فندق سيقدم له طبق ملىء بحساء الكرنب مع الخبز ، وفراش دافىء نظيف بملاءة ، وسيجد مكانا يجفف فيه ملابسه وحذاءه - كل ذلك مقابل خمسة أو ستة كوبكات » ..

كان من عادة يوليا سيرجيفنا أن تظل صامتة فى حضرته ، ولكنه بطريقة غريبة ، ربما بفريرة العاشق ، كان يخمن أفكارها وما تريد عمله . وفى هذه اللحظة كذلك ، كان يقول لنفسه ، ما دامت لم تذهب الى حجرتها لتغير ملابسها وتحسى الشاى بعد صلاة المساء ، فلا بد انها ستعود الى الخروج .

واصل حديثه فى غير ارتياح فقال للطبيب :

- « ولكننى لست متعجلاً بشأن الفندق » .

حذق فيه الطبيب دون اهتمام ، وان كان من الواضح أنه يتساءل بينه وبين نفسه لم تحدث فى موضوع الطب والمحافظة على الصحة . ومضى لابتيف يقول :

- « الأغلب أنى لن أحتاج لهذه التقديرات بسرعة . أنا أخشى أن يقع الفندق فى أيدي بعض أصدقائنا المنافقين الدجالين ، أو أولئك السيدات من دعاة الانسانية اللائى يفسدن كل مشروع نافع » ..

وقفت يوليا سيرجيفنا ومدت يدها قائلة :
- « اذا سمحت لى يجب أن اذهب . أرجونك بلغ تحياتى
لشقيقتك » ..

أخذ الطبيب يدندن : « رو - رو - رو - رو » .

خرجت يوليا سيرجيفنا ، وبعد أن خرجت ببرهة وجيزة استأذن
لابتيف من الطبيب وعاد الى بيته . واذا بكل أشجار الليمون ،
والظلال ، والسحب ، وكل ما فى الطبيعة من جمال فطرى أنيق
يبدو فى نظره الآن تافها ، شأنه دائما حين يكون الانسان غير راض
أو تعسا . ارتفع القمر فى كبد السماء وتلاحقت السحب تحته
مسرعة كأنها فى سباق ..

وقال لابتيف لنفسه « يا له من قمر ريفى ساذج ، ويا لها من
مجموعة من السحب تدعو للثناء » . كان خجلا من نفسه لأنه
تحدث عن الطب وعن فندقه ، وأفزعته أن يتذكر أنه فى الغد لن
يستطيع مرة أخرى مقاومة اغراء الرغبة فى رؤيتها والتحدث معها ،
وانه سوف يقنع نفسه من جديد بأنها لا تهتم به . وسوف يحدث
الشيء نفسه فى اليوم التالى . متى وكيف سينتهى كل ذلك ؟ ..



ما أن وصل لابتيف الى البيت حتى ذهب الى حجرة شقيقته ..
كانت نينا فيودروفنا لا تزال محتفظة بمظاهر الصحة والعافية
فمن الممكن ألا يعتقد الانسان أنها مريضة لولا شحوبها المخيف الذى
يضمف على وجهها حين تستلقى على ظهرها ونفاق عينيها مظهرها
كالأموات ..

وكانت ساشا ، كبرى بنتيها ، وهى فى العاشرة من عمرها ،
جالسة الى جوارها تقرأ بصوت عال فى كتاب مدرسى .

وتمتت المريضة قائلة :

- « ألكسى هنا » .

كان هناك ثمة اتفاق متفاهم عليه بين ساشا وخالها على أن يتناوبا الجلوس الى جوار فراش المريضة . فأغلقت ساشا كتابها وانسلت خارجة دون كلمة . وأخذ لابتيف رواية تاريخية من على مائدة الزينة ، وعثر على الصفحة المطلوبة ، وبدأ يقرأ بصوت مرتفع .

كانت نينا فيودروفنا من بنات موسكو . قضت طفولتها مع شقيقها فى منزل والدهما التاجر بشارع بياننيتسكايا . وكانت طفولة طويلة حزينة . فقد كان أبوها شديد الصرامة فى معاملتها ، بل لقد ضربها بالسوط أكثر من مرة ، وماتت والدتها بعد مرض طويل . وكان الخدم كسالى ، خشنين ومنافقين ، والرهبان والقسس الذين يترددون على البيت كانوا هم أيضا خشنين ومنافقين ، كانوا يأكلون ويشربون بشهية ويشنون على أبيها الذى يحترقونه . وكان الصبيان محظوظين اذ أتيح لهما الذهاب الى المدرسة ، أما نينا فقد ظل تعليمها قاصرا ، فقد تعلمت القراءة والكتابة لا أكثر . وكانت لا تقرأ شيئا سوى الروايات التاريخية . وحين بلغت الثانية والعشرين - منذ ما يقرب من سبعة عشر عاما التقت بزوجها الحالى بانوروف ، خلال صيف أمضوه بالريف فى « خيمكى » فأحبته وتزوجته سرا ضد رغبة أبيها . فبانوروف صاحب الارض الوسيم المفرور ، الذى يصفر بفمه ويشعل سيجارته من مصباح الايقونة المقدسة ، كان تافها حقيرا فى رأى الرجل العجوز ، وحين بدأ زوج ابنته يرسل اليه خطابات يطالبه فيها ببائة ، كتب الى ابنته يقول انه يرسل اليها معاطف الفراء والفضيات وغيرها من حاجيات والدتها ، وفوقها ثلاثون ألف روبل ، ولكنه يرفض أن يباركها . وبعد مدة ، أرسل اليها عشرين ألف روبل أخرى . ولم يمض وقت طويل الا وكانت النقود والبائة قد انتهت ، وبيع المنزل

الريفى ، وانتقل بانوروف مع أسرته الى المدينة ليعمل موظفا فى ادارة المحافظة . . وهناك كون لنفسه أسرة أخرى ، فأثار ذلك شائعات كثيرة ، خاصة وانه لم يحاول اخفائه .



كانت نينا فيودروفنا تعبد زوجها ، والآن وهى تنصت للرواية التاريخية ، كانت تفكر فى كل ما مرت به خلال السنوات الماضية ، وكيف ان قصة حياتها الخاصة ستكون حزينة جدا لو قدر لاحد أن يكتبها . . ولما كانت أعراض المرض فى صدرها ، فقد كانت مقتنعة تماما ان مرضها كان نتيجة لحب شقى ، وان الدموع والفسيرة قد سلبتها صحتها .

أغلق الكسى فيودروفيتش الكتاب وقال :

– « وهكذا انتهت هذه الرواية والحمد لله ، وغدا نبدأ رواية أخرى » .

ضحكت نينا فيودروفنا ، فهى تضحك بسهولة دائما ، ولكن لابتيف بدأ يلاحظ أن مرضها يؤثر فى بعض الأوقات على عقلها ، فتضحك لسكل تافه من الأمور ، وأحيانا بلا سبب بالمرّة .

وقالت :

– « يوليا كانت هنا هذا الصباح ، بعد أن خرجت ، لا اظن انها تؤمن بأبيها كثيرا ، فقد قالت دعى أبى يعالجتك ، ولكنى يجب أن أنصحك بأن تكتبى أيضا بصفة سرية لذلك الرجل المبارك كى يصلى من أجلك . فهناك رجل مبارك فى المدينة كما تعلم . وقد نسيت يوليا مظلتها ، يجب أن ترسلها اليها غدا » . ثم واصلت حديثها بعد قليل :

– « ولكن حينما تأزف النهاية لا يفيد أطباء ولا مباركون » .

وسألها لابتيف ليغير الموضوع :

– « نينا ، لم لا تنامين الليل ؟
– لا أعلم . كل ما فى الأمر انى لا أستطيع . انى أستلقى وأظلم
مستيقظة أفكر .

– وفيم تفكرين يا عزيزتى ؟
– فى الأطفال ، وفيك . . وفى حياتى . لقد عانيت الكثير
يا الكسى . وحين أتذكر كل شىء – يالله ! « .
وضحكت ثم واصلت حديثها :

– « لقد ولدت خمس مرات ، ودفنت ثلاثة أطفال . . فى بعض
الأحيان كنت على وشك الوضع وعزيزى جريجورى نيكولافيتش
جالس هناك مع تلك المرأة ، فلا أحد أرسله لاستدعاء القابلة . وحين
أخرج الى الصالة أو المطبخ باحثة عن الخادمة ، أجد امامى . .
يهودا وتجارا ومرايين جالسين فى انتظار عودته ، فيكاد رأسى
ينفجر . . انه لا يحبنى ، وان كان لم يقل ذلك أبدا . لم يعد ذلك
يهمنى الآن أو يؤذى مشاعرى ، ولكنى حينما كنت أصغر سنا
كنت غاية فى التعاسة ، غاية فى التعاسة يا عزيزى . مرة وجدته
فى الحديقة مع احدى السيدات – وكنا نعيش فى الريف وقتذاك ،
فاستدرت وسرت مبتعدة دون أن أعلم الى أين أنا ذاهبة حتى وجدتنى
أمام الكنيسة . جثوت على ركبتى وصرخت ، « أيتها الام
المباركة ! » وكان الظلام قد انتشر ، وأشرق القمر . .

وتوقفت تسترجع أنفاسها ، وبعد أن استراحت قليلا أمسكت
بيد شقيقها وقالت بصوت خال من التعبير :

– « ما أطيبك يا الكسى ، وما أشد لطفك ، وطيبة قلبك ! » .
غادر لابتييف حجرة شقيقته فى منتصف الليل ، وأخذ معه
مظلة يوليا سيرجيفنا رغم تلك الساعة المتأخرة وقد وجد الخدم
يحتسون الشاى فى حجرة الطعام . وقال لنفسه ان البيت خال

من كل نظام . كانت الطفلتان لا تزالان مستيقظتين وفي حجرة الطعام أيضا . وكانوا يتحدثون بصوت منخفض ، وبأصوات مضطربة ، دون أن يلاحظوا ان المصباح المرتعش يوشك أن ينطفئ : فقد كان الكبار والصفار على السواء منزعجين بسبب بعض نذر السوء التى ظهرت أخيرا .

مرآة الصالة شرخت ، وأبريق الشاي الكبير يصدر صفيرا كل يوم ، بل كان يصفر الآن أيضا كأنما من الحقد ، وقالوا ان فأرا قفز من حذاء نينا فيودروفنا وهى توشك أن تضع قدميها فيه . وحتى الاطفال أصبحوا يعرفون الآن الدلالة المخيفة لهذه النذر . كانت ساشا ، وهى أكبر الفتاتين ، نحيلة ، سوداء الشعر ، تجلس الى المائدة بلا حراك وقد بدا عليها الخوف والألم ، أما ليدا الصغيرة الشقراء ، وهى فى السابعة من عمرها ، فكانت تقف الى جوارها متجهمة للنار .

هبط لابتيف الى جناحه فى الدور الأرضى ، وكانت حجراته خانقة منخفضة السقف ، تنبعث منها رائحة كرائحة الاعشاب الرطبة . ووجد زوج نينا فى حجرة جلوسه يقرأ جريدة . هز لابتيف رأسه وجلس فى مواجهته دون أن يتفوه أى منهما بكلمة ، فقد كان باستطاعتهم أن يمضيا معا أمسيات كاملة على هذا النحو دون أن يتبادلا كلمة واحدة .

ونزلت الفتاتان لتقولوا مساء الخير . ودون كلمة رسم باروف علامة الصليب عليهما وسمح لهما بتقبيل يده ، فانحنيتا واتجهتا الى لابتيف الذى رسم عليهما علامة الصليب أيضا وأعطاهما يده لتقبلاها . وكانت هذد المراسيم تتكرر كل مساء .

وحين ذهبت الفتاتان ألقى بانوروف صحيفته جانبا وقال :

– « ألا ما أشد سخافة الحياة هنا فى هذه المدينة التى تخاف الله ! اعترف يا صديقى العزيز » .

ثم أضاف وهو يتنهد :

« انى سعيد جدا لانك وجدت أخيرا ما يسليك » .

وسأل لابتيف :

– « عم تتحدث ؟ »

– لقد رأيتك خارجا من منزل دكتور بيلافين منذ بضعة أيام .
أعتقد أنك لم تذهب الى هناك من أجل الاب ؟ » .

وأجاب لابتيف وقد احمر وجهه :

– « بالطبع لا . »

– هذا أمر طبيعى . بالمناسبة ، ان أباهما ذلك عجوز أحمق ومزعج ليس بوسعك أن تتصور مدى غيائه وثقل ظله ! انه جلف عاجز مفرور . أنتم سكان العاصمة ما زلتم لا ترون سوى الجانب المشرق فى الأقاليم ، كالمناظر الشاسعة وأنطون جورميكا ، ولكنى أوكد لك يا صديقى انه ليس فى الأقاليم كلها أى جانب مشرق . بل لا شىء غير التوحش ، والانحطاط ، والقدارة . ولنأخذ على سبيل المثال مصادر الضوء والمعرفة ، أو من نسميهم بالمتقفين . فى هذه المدينة ثمانية وعشرون طبيبا ، كلهم كونوا ثروات ويسكنون منازل يملكونها . ومع ذلك فما زال أهل المدينة مرضى عاجزين كما هم . وحينما تحتم علينا أن نجرى عملية لنينا ، وأذكرك أنها عملية بسيطة ، اضطررنا الى استدعاء جراح من موسكو – فلم يكن هنا جراح واحد يستطيع اجراءها . تصور ! انهم لا يعرفون شيئا ، ولا يفهمون شيئا ، ولا يهتمون بشىء . جرب مرة واسألهم عن السرطان مثلا ما هو ، وما أسبابه » .

ومضى بانوروف يشرح ما هو السرطان . كان خبيرا فى كل فروع

العلم ، وكان لديه لكل شيء تعليل علمي ، وان كان تمليلًا خاصًا به . كانت لديه نظريته الخاصة عن الدورة الدموية ، وكان لديه علم كيمياء وعلم فلك خاصان به ، وكان يتحدث ببطء ، وبرقة المتفضل ، وعيناه نصف مغمضتين ، ويتعجب قائلاً « تصور هذا ! » في همس شبه متوسل تسبقه وتعقبه تنهيدات وابتسامات متلطفة . كان من الواضح أنه شديد الإعجاب بنفسه ، لا يحس بالمرّة بأنه في الخمسين من عمره .

وقال لابتيف :

— « أنا جائع . شيء من الطعام المحفوظ قد يؤدي المطلوب . فهذا شيء من السهل اعداده » .



وبعد قليل كان لابتيف وزوج شقيقته جالسين في حجرة الطعام بالدور العلوى يتناولان عشاءهما . احتسى لابتيف كأسًا من « الفودكا » ثم أتبعه بالنبيذ . أما بانوروف فلم يشرب شيئًا . فهو لا يشرب أبداً ولا يلعب الورق ، ومع ذلك استطاع أن ينفق ثروته وثروة زوجته ويفرق نفسه في الديون كذلك . فيضيع كل هذا القدر الكبير من المال في مثل هذا الوقت القصير لا يتطلب قدرا من الرذيلة بقدر ما يحتاج الى نوع خاص من الموهبة . وكان ببانوروف ضعف خاص للطعام الجيد ، والخدمة الممتازة ، والغداء على عزف الموسيقى ، وانحاء الخدم الذين يلقي اليهم عادة بورقة من ذات العشرة روبلات ، وأحيانا من ذات الخمسة والعشرين ، كبقشيش ، وهو يسهم بصفة دائمة في كل أنواع الاشتراكات واليانصيب ، ويرسل الأزهار الى كل صديقاته في أيام أعيادهن ، ويشترى الكؤوس ، والحوامل الزجاجية ، وأزرار القمصان ، وأربطة العنق ، والعصى ، وحلى الزينة اليابانية ، وكل أنواع الفرائب ، ولا يرتدى

فى المساء الا قمصانا من الحرير ، وسريره من الاینوس المطعم
بالصدف ، ورداء نومه من حرير « بخارى » الأصلى ، وهكذا ،
وكل ذلك يكلفه « اكواما من النقود » على حد تعبیره .
كان طوال العشاء يتنهد ويهز رأسه ، ثم قال بلطف وقد ضاقت
عيناه السوداوان :

— « نعم ، لكل شىء نهاية فى هذا العالم . تقع فى الحب ،
وتقاسى ثم تتخلص من الحب مرة أخرى ، وستخونك حبيبتك لان
كل النساء خائنات ، ان عاجلا أو آجلا ، فتقاسى وتيأس ، وفى
النهاية تخونها أنت أيضا . ولكن سيأتى الوقت الذى يصبح فيه
كل ذلك مجرى ذكرى تتحدث عنها ببرود وتعتبرها عبثا لا أكثر ولا
أقل » .

كان لابتيف مرهقا وقد لعبت الخمر برأسه قليلا ، فنظر الى رأس
بانوروف الأنيق بلحيته السوداء المشطبة بعناية ، وأحس انه يفهم
لمذا كانت النساء شديداً التعلق بهذا الرجل الوسيم ، المتدفق ،
الواثق بنفسه .



بعد العشاء ذهب بانوروف الى مسكنه الآخر . وصاحبه لابتيف
فى جزء من الطريق . وكان بانوروف هو الشخص الوحيد فى المدينة
الذى يرتدى قبعة عالية ، والى جوار الأسوار الرمادية ، والبيوت
الخشبية الفقيرة والشجيرات الصغيرة اذا بقامته الأنيقة المعتزة ،
وقبعته العالية ، وقفازيه الصفراوين ، تبدو غريبة شاذة ومثيرة
للأسى على نحو من الأنحاء .

ودعه لابتيف ثم سار ببطء عائدا الى البيت . كان ضوء القمر
قويا الى أبعد حد حتى لقد استطاع لابتيف أن يرى بوضوح كل
قطعة صغيرة من العشب ، وأحس لابتيف وكأن ضوء القمر يقبل

رأسه العارى بلمسة رفيقة حانية .

وقال بصوت مرتفع : « أنا أحب ! » . كان يريد أن يلحق بيانوروف ، ويعانقه ، ويعفوه عن كل أخطائه ، ويقدم له كمية كبيرة من المال ، ثم يجرى الى مكان ما فى الحقول أو الغابات دون أن ينظر خلفه .



وحين عاد الى البيت رأى على أحد المقاعد المظلة التى نسيتهها يوليا سيرجيفنا ، فأخذها ، ورفعها ، وضغط عليها بشفتيه . كانت مظلة من الحرير ، ولكنها ليست جديدة بحال ، وكانت مربوطة بشريط قديم من المطاط ، ولها مقبض من العظم الأبيض الرخيص . فتحها لابتيف ووضعها فوق رأسه وبدأ له أن يستشعر أنفاس السعادة الحققة .

جلس على أحد المقاعد بارتياح وهو ما زال ممسكا بالمظلة ، ثم بدأ يكتب خطابا لواحد من أصدقائه فى موسكو .

« عزيزى كوستيا العزيز لدى لك بعض الأخبار : لقد وقعت فى الحب مرة أخرى ! وأقول « مرة أخرى » لأنى منذ ست سنوات وقعت فى حب ممثلة من ممثلات موسكو لم أنجح فى مقابلتها ، ومنذ عام ونصف وأنا أعيش مع « الشخص » الذى تعرفه - وهى امرأة ليست صغيرة ولا جميلة . آه ، يا صديقى العزيز ، ما أشد تعاستى فى الحب ! لم أكن موفقا أبدا مع النساء ، وإذا كنت أقول « مرة أخرى » فما ذلك الا لأنه من المؤلم والمحزن أن أعترف لنفسى بأن شبابى قد انقضى دون حب وانى الآن فقط فى الرابعة والثلاثين بدأت أعرف ما هو الحب حقا . لذلك لنقل « مرة أخرى » .

« فقط لو أتيح لك أن تعرف هذه الفتاة ! لن تسميها جميلة - فعظمتا وجنتيها بارزتان ، وهى نحيلة جدا ، ولكن أى حنو يفيض

من وجهها ، وأى روعة فى ابتسامتها ! ان صوتها تفريد . وهى لا تتحدث معى أبدا ، لذلك لا أستطيع أن أقول انى أعرفها حقا ، ومع ذلك فحين أكون قريبا منها أشعر اننى فى حضرة مخلوق نادر عجيب ، شديد الحكمة والسمو انها متدينة ، ولا تستطيع أن تتصور الى أى حد يؤثر ذلك فى نفسى ويسمو بها فى نظرى . وفى هذا الموضوع أنا مستعد لمناقشتك الى أبعد مدى . سأفرض أنك على حق ، فسر الأمر على طريقتك ، ومع ذلك فانا أحبها حين تصلى فى الكنيسة . انها فتاة من بنات الأقاليم ، ولكنها تعلمت فى موسكو ، وهى تحب مدينتنا موسكو ، وترتدى أحدث أزياء موسكو ، ولهذا أيضا أحبها ، أحبها ، أستطيع أن أراك وأنت تعقد حاجبيك وتنهض لتلقى محاضرة طويلة عن الحب ما هو ، ومن هو الشخص الذى يجب أن نعبه والشخص الذى يجب الا نعبه ، الخ ، الخ . ولكن يا عزيزى كوستيا ، قبل أن أحب أنا بنفسى ، كنت أنا الآخر أعرف بالضبط ما هو الحب . .

« شقيقتى تشكر لك تمنياتك . وكثيرا ما تتذكر كيف كانت تصحب الصغير كوستيا كوتشفوا الى الفصول التحضيرية ، وما زالت تسميك « كوستيا المسكين » لأنك ما زلت فى نظرها ذلك الطفل الصغير اليتيم . وعلى ذلك ، فايها الطفل الصغير اليتيم المسكين ، أنا أحب . ولما كان الأمر سرا ، لذلك أرجوك الا تبوح بشيء لذلك « الشخص » الذى يهमे الأمر . وأعتقد أن المسألة ستسوى بطريقة مرضية ، أو ، كما يقول الخادم فى رواية تولستوى ، كل شيء سيصحح نفسه بنفسه » .

بعد أن انتهى الخطاب آوى لابتيف الى فراشه . وكان الارهاق يثقل عينيه ، ولكنه لسبب ما لم يستطع النوم ، وأعتقد أن ضجيج الشارع هو الذى حرمه النوم ، فقد كان يسمع القطعان وهى تساق

الى جوار البيت ، وصوت البوق المصنوع من قرن ثور ، وبعد ذلك
بقليل دق ناقوس الكنيسة لصلاة الفجر . ثم سارت عربة متثاقلة
بالقرب من المنزل ، وجاء بعدها صوت فلاحه فى طريقها الى السوق،
ولم تكف العصافير عن شقشقتها المتصلة .

كان يوما بهيجا مشرقا . وفى حوالى الساعة العاشرة قادوا نينا فيودروفنا ، وقد ارتدت ثوبا نينا ، ومشطت شعرها بأناقة ، الى حجرة الجلوس ، سارت فى الحجرة قليلا ، ثم وقفت أمام النافذة المفتوحة تبتسم ابتسامتها الكبيرة كابتسامة طفل . ان المرء حين ينظر اليها ، يتذكر ما قاله عنها مرة فنان اقليمى وكان رجلا مغرما بالخمير ، من أن وجهها كالصورة المقدسة ، وقد طلب منها ان تقف امامه ليرسم صورة ليوم الاعتراف المقدس فى روسيا .

فجاء فى ذلك الصباح كان الجميع - الأطفال ، والخدم ، وشقيقها الكسى ، وحتى هى نفسها - واثقين تماما بأن صحتها ستتحسن . وأخذت الفتاتان الصغيرتان تجريان وراء خالهما ، وهما تضحكان بصوت مرتفع ، وعادت الحياة الى البيت من جديد .

وجاء الناس ليطمئنوا على صحتها ، وأحضروا معهم الفطائر المقدسة ، وقالوا انه أقيمت فى ذلك اليوم صلوات من أجلها فى معظم كنائس المدينة ، فقد كانت معروفة باحسانها ، وكان الناس يحبونها . كانت تقدم الاحسان بسخاء ، كشقيقها الكسى ، الذى كان يمنح المال ببساطة ، دون أن يتوقف ليفكر ان كان من الحكمة اعطاؤه أم لا . وكانت نينا فيودروفنا تدفع مصاريف التعليم للطلبة المحتاجين وتقدم الشاى والسكر والمربى للنسوة العجائز ، وتجهز العرائس المعوزات ، واذا وقعت صحيفة فى يدها فأول ما تبحث عنه فيها نداء يطلب المساعدة ، أو شكوى أدلى بها مكروب .

والآن أيضا تقبض يدها على حزمة من الأوراق حصل المحتاجون بموجبها على الطعام على حسابها ، وها هو البقال يطالب بماله .
وقالت ، وهى لا تكاد تتبين خطها على الأوراق :

– « بالله ، ما أكثر ما أخذوه ! أليست لديهم ضمائر بالمرّة ؟
تصور ! اثنان وثمانون روبل ! ماذا لو امتنعت عن الدفع ؟ » .
فقال لإبتيف :

– « سأدفع له اليوم » .

ولكن نينا فيودروفنا عادت تقول باضطراب :

– « لا ، لا تفعل » .

ثم أضاف بصوت منخفض لكيلا يسمع الخدم :

– « يكفى انى أخذ كل شهر ٢٥٠ روبل منك ومن فيودور .
فليباركك الله » .
فقال :

– « ولكنى أنا نفسى أنفق كل شهر ألفين وخمسمائة روبل . وأقول
لك مرة أخرى يا عزيزتى ، ان من حقك أن تنفقى مثلى ومثل
فيودور . أرجوك أن تفهمى هذا وتريحينى . نحن ثلاثة ، وكل كوبك
يخرج من أى منا هو من حقك أنت » .

ولكن نينا فيودروفنا لم تستطع أن تفهم ، وبدا من تعبير وجهها
انها مرتبكة فى مسألة حسابية معقدة . وكان عجزها عا ادراك
ما يتعلق بالمسائل المالية يزعج لإبتيف دائما . وكان يشك أيضا فى
أن عليها ديونا خاصة تخجل من الاعتراف بها وتتسبب فى ايلامها .
فى تلك اللحظة سمعت على السلم أصوات أقدام وأنفاسا لاهثة .
انه الطبيب – مضطرب الهندام كالعادة ويهمهم :

« رو – رو – رو – رو » .

ولكى يتجنب لإبتيف مقابلته ، خرج عبر حجرة الطعام ، ثم هبط

الى شقته . انه لم يستطع أبدا أن يوثق علاقته بالطبيب بالقدر الكافى لكى يزوره فى منزله كثيرا ، فضلا عن أنه لم يكن يحتمل ذلك « الأحق العجوز » كما يسميه بانوروف . ولهذا السبب كان لا يرى بوليا سيرجيفنا الا نادرا . وخطر بباله : الآن والآب ليس بالمنزل ، ماذا لو أخذ الى يوليا سيرجيفنا مظلتها ؟ لا شك انه سيجدها وحدها ، وقفز قلبه فى صدره من السعادة . يجب أن يسرع ، يسرع !



أخذ المظلة ، وكل ما فيه يرتجف ، وطار اليها على أجنحة الحب . كان الجو فى الخارج حارا . وكانت هناك مجموعة من الصبية – أطفال من سكان المباني المهتمة الملحقة التى ينوى الطبيب اصلاحها منذ سنوات – كانوا يلعبون الكرة وسط الحشائش والنباتات فى فناء الطبيب الواسع ، وكان الهواء يضح بصيحاتهم القوية . وفى ركن الفناء البعيد ، كانت يوليا سيرجيفنا واقفة الى جوار عتبة بيتها ، ترقب المباراة وقد ضمت يديها خلف ظهرها .

ناداها لابتيف قائلا :

– « صباح الخير ! » .

فالتفتت ، ولاحظ أن وجهها الذى تعود أن يراه باردا أو غير مبال ، أو مرهقا كما كان بالأمس ، قد اكتسبت حيوية وتورد كخروج الصبية المحيطين بها . وقالت وهى تتقدم للقائه :

– « أنظر ، لا يمكن أن ترى مثل هذه الألعاب الجميلة فى موسكو ، ولكن الأفنية هناك أصفر بكثير بطبيعة الحال ، وليس هناك مكان للجرى » .

ثم أضافت وهى تستدير لتنظر الى الأطفال :

« لقد ذهب أبى منذ قليل الى بيتكم » .

فأجابها لابتيف وهو يتأمل بأعجاب شبابها الذى اكتشفه الآن ،
وعنقها الأبيض الرشيق وقد زينته سلسلة ذهبية :

– « أعرف . لقد جئت لأراك أنت لا هو » .
ثم كرر قوله :

– « جئت لأراك أنت ، مظلتك ، طلبت أختى منى أن احضرها
لك .

لقد نسيتهما أمس » .

مدت يدها لتأخذ المظلة ، ولكنه فجأة ضمها الى صدره ، وقال
بعاطفة ، وقد استسلم باندفاع لتلك السعادة القريبة التى مارسها
ليلة الامس حين فتح المظلة :

– « أرجوك اسمح لى بأن أحتفظ بها ، سوف أقدسها كذكرى
لك ... لصدقتنا . ما أروعها ! » .

أجابته وقد احمر وجهها خجلا :

« – تستطيع أن تحتفظ بها ، ولكنها خالية من كل روعة » .

حدق فيها بوجه صامت ، وضاعت منه الكلمات ..

وبعد برهة من الصمت قالت :

– « ويلي ، لماذا أدعك فى الخارج تحت هذه الشمس المحرقة ؟ »

ثم ضحكت وأضافت :

– « هيا بنا الى الداخل .. »

– أخشى أن أعطلك ؟ » .

ودخلا البيت ، وأسرت يوليا سيرجيفنا تصعد السلم ولثوبها
الأبيض المنقوش بالأزهار حفيف مسموع ، ثم توقفت على السلم
لتجيبه :

– مستحيل أن تعطلنى ، لأنى لا أفعل شيئا . كل يوم عطلة
بالنسبة لى ، من الصباح الى المساء .

فقال وهو يصعد اليها :

— هذا شيء لا أستطيع أن أفهمه ، فقد نشأت كما تعلمين ، بين قوم يعملون كل يوم . يستوى فى ذلك الرجال والنساء .

سألته :

— « ولكن ماذا يحدث اذا لم يكن هناك ما يفعلونه ؟

— « يجب أن يرتب الانسان حياته على أساس أن العمل ضرورة . فبدون العمل لا يمكن أن تكون الحياة ظاهرة ومرحة » .

وضم المظلة مرة أخرى ، ولدهشته سَمِع نفسه يقول برقة وبصوت لم يكد يتعرف فيه على صوته :

— « لو وافقت على أن تكونى زوجتى فسأعطيك كل ما أملك . كل شيء . . ليس هناك شيء ، ولا تضحية الا وسأبذلها » .

فوجئت ونظرت اليه فى فزع ودهشة ، ثم قالت وقد شحب وجهها :

— « أوه ، لا ! هذا مستحيل . أوكد لك . أرجو المذرة » .

وجرت مسرعة على السلم ، ولثوبها حفيف مسموع ، واختفت خلف الباب .

تغيرت حالته النفسية بحدة كأنما خبا الضوء مع روحه . وأسرع الى خارج المنزل ، وهو يحترق فى نار الخجل والاحساس بالمدلة ، وقد سيطر عليه الاعتقاد بأنه أهين وأنه غير محبوب ، بل وكريه ، ومثير للاشمئزاز أيضا .

وبينما هو يسير تحت الشمس المحرقة فى طريق العودة الى انبيت ، أخذ يسخر من نفسه وهو يتذكر تفاصيل اعترافه :

— « سأعطيك كل ما أملك ، سأعطى كل شيء . . مثل أى تاجر ! وكان هناك من يريد كل ما لديك ! » .

كل ما قاله حماقة مثيرة . لماذا كذب بقوله انه نشأ وسط قوم

يعملون كل يوم ؟ ولماذا وعظ عن الحياة الطاهرة المرححة ؟ كل ذلك غباء ، وتفاهة ، وزيف - أو خداع زائف بأسلوب موسكو .

ولكن شيئاً فشيئاً تغيرت حالته النفسية الى نوع من اللامبالاة التامة شبيهة بما ينتاب المجرم بعد نطق الحكم ، أنه الآن يشكر الله على أن كل شيء قد انتهى وأنه قد تخلص من حالة الشك المؤلمة . لقد وضح الآن كل شيء ، لا سعادة له ، ولا آمال ، ولا أحلام . ولا حنين ، ولكي يتجنب ذلك الملل الذي يعذبه ، سوف يشغل نفسه بسعادة الآخرين . وقبل أن يفطن ، ستكون السن قد تقدمت به ، وسيستوى كل شيء . والآن لم يعد يعاب بشيء ، وباستطاعته أن يزن الأمر كله دون عاطفة أو انفعال . ومع ذلك فهو يحس بوجهه ثقيلًا ثقلاً غريباً ، وبخاصة أسفل عينيه ، ويحس بجبهته مشدودة كأنها من المطاط . وكأن الدموع ستنفجر من عينيه الى الأمام ..

استلقى على سريره ضعيفا متهاككا ، ولم تمض خمس دقائق حتى راح فى سبات عميق ..

أحدث طلب لابتيف الزواج دون توقع خيبة أمل عميقة فى نفس يوليا سيرجيفنا ، فهى لا تعرفه الا معرفة سطحية ، قابلته مصادفة . انه رجل ثرى ، وأحد أصحاب مؤسسة فيودور لابتيف وأولاده المشهورة فى موسكو ، جاد دائما ، وواضح الحذق ، شديد الاهتمام بصحة شقيقته . وقد اعتقدت انه لا يكاد يحس بوجودها ، وهى نفسها لم تكن لتتكرث به - والآن اذا بهذا الطلب للزواج على السلم ، وتلك النظرة المشفقة المتعالية على وجهه ..

لقد اضطربت تماما لأن الامر حدث فجأة ودون أى تمهيد ، ولأنه أستخدم كلمة « زوجة » ولأنها كان عليها أن ترفضه . انها لا تذكر ماذا قالت له ، ولكن الاحساس بالنفور ما زالت أصداؤه تتردد فى نفسها . انها لا تحبه ، فمظهره كمظهر البائع المتجول ، وليس فيه ما يثير أقل قدر من الاهتمام ، ولم يكن باستطاعتها أبدا أن تقبله . ولكنها لم تكن مرتاحة مع ذلك ..

قالت لنفسها بياس وهى تلتفت الى الصورة المقدسة المعلقة فوق سريرها :

« يالله - على السلم ، ودون حتى أن يدخل الحجره ، بل ودون كلمة مجاملة ، وبهذا الأسلوب العجيب ! » .



ظلت وحيدة ، وأخذ قلقها يزداد مع مرور الوقت حتى وجدت نفسها فى حاجة الى أن تتحدث مع شخص ما ، فى حاجة الى أن

تتأكد من أن ما صنعته هو الصواب . ولكن لم يكن هناك من تتحدث معه . أمها ماتت منذ زمن بعيد ، وأبوها ليس بالرجل الذى تستطيع أن تحادثه فى أمر جاد . فنزواته وحساسيته المؤلمة وإشاراتة المبهمة كانت تزعجها ، فضلا عن أنه مهما كان الموضوع الذى تحادثه عنه فإنه دائما يحول المناقشة الى نفسه . وكذلك لم تكن صريحة تماما فى صلواتها ، لأنها لم تكن تعرف بالضبط ما الذى تصلى من أجله ..



أدخلوا ابريق الشاى الكبير . كانت يوليا سيرجيفنا تبدو شديدة الشحوب ومرهقة ، وقد سيطر عليها احساس بالعجز . دخلت حجرة الطعام ومزجت الشاى - وهو واجبها اليومى - وملأت كوب أبيها . وكان سيرجى بوريستش فى سترته الطويلة التى تصل الى ما تحت ركبته ، وشعره غير المشط ، ويداه داخل جيوبه ، يذرع حجرة الطعام كحيوان محبوس فى قفص . وبين الحين والآخر يتوقف أمام المائدة ليرشف من كوبه بصوت مزعج ثم يواصل خطواته وهو شارد الذهن كما هو ..

قالت يوليا سيرجيفنا :

« لابتيف عرض على الزواج اليوم » .

وأحمر وجهها ، فرمقتها الطيب بعينيه وبدا كمن لم يفهم وسألها :

« لابتيف عرض على الزواج اليوم » .

كان يحب ابنته ، ويدرك أنها ان عاجلا أو آجلا ستتزوج وتتركه ، ولكنه كان يحاول ألا يفكر فى الأمر . كان يفزع من مصيره المتوقع حين يعيش فى هذا البيت الكبير وحده ، وان لم يكن يعترف بذلك ، ولكنه كان مقتنعا بينه وبين نفسه أنه لو حدث ذلك فسيصاب ذات يوم بسكتة قلبية ..

قال وهو يهز كتفيه :

— « ما أشد سعادتي حقا ، أهنئك من صميم قلبي . امامك الآن فرصة رائعة كى تتركينى . ومعك كل الحق . فلا بد أن الحياة مع أب عجوز ، مخلوق مريض شبه مهووس ، شاقة جدا على شخص فى مقتبل العمر . معك الحق تماما . وكلما أسرعرت بالتذمر ، أسرع الشيطان فى قبض روى ، فتزداد بذلك سعادة الجميع . أهنئك يا عزيزتى .

— لقد رفضته ..

أحس الدكتور براحة كبيرة لذلك ، ولكنه لم يستطع كبح جماح نفسه ، ومضى يقول :

« كثيرا ما أتساءل لماذا لم أوضع حتى الآن فى مستشفى للمجاذيب ، لماذا ارتدى هذه السترة بدلا من « جاكيت » بسيطة ؟ انى ما زلت أومن بالصدق والخير . أنا واحد من مثاليك المعتوهين ، أو ليس هذا جنونا فى عصرنا ؟ ما الذى أحصل عليه مقابل صدقى وأمانتى ؟ الناس يستغلوننى ويكادون يرحموننى بالأحجار . حتى أقرب الناس الى يحاول الركوب على رقبتى ، فما أحقنى من عجوز أبله ..

وقالت يوليا :

— الحديث معك مستحيل يا أبى !

ونفضت وغادرت المائدة مسرعة وذهبت الى حجرتها وقد اشتد بها الغضب . ما أكثر ما ظلمها . ولكنها سرعان ما شعرت بالحزن من أجله ، وحين أزف موعد ذهابه الى ناديه ، صحبته فى هبوطه الدرج ، وأغلقت خلفه الباب بنفسها .

كانت ليلة عاصفة مضطربة الجو اهتز الباب تحت ضغط الريح ، واشتد تيار الهواء عند مدخل البيت حتى كاد يطفىء شمعتها .

صعدت يوليا الى الدور العلوى ومرت بجميع حجراته ، ورسمت علامة الصليب فوق كل النوافذ والأبواب . عوت الريح وخيل اليها انها تسمع وقع أقدام شخص يسير فوق السقف . ومر الوقت ببطء ، وأحست بالوحدة أكثر من أى وقت مضى .



سألت نفسها هل كانت مصيبة فى رفضها لابتياف لا لشيء الا لأن مظهره لا يعجبها . حقا ، هى لا تحبه ، والزواج منه معناه الوداع الأبدى لكل أحلامها ، ولما تخيلته عن السعادة والحياة الزوجية ، ولكن هل ستلتقى حتما بالرجل الذى تحلم به ؟ انها الآن فى الحادية والعشرين وليس فى المدينة رجال صالحون للزواج . فكرت فى كل من تعرفهم من الرجال ، موظفى الحكومة ، المدرسين ، الضباط ، فوجدت أن بعضهم قد تزوجوا بالفعل ، ويعيشون حياة مملّة تافهة الى أبعد حد ، أما الآخرون ، فأغبياء لا لون لهم ، أو سيئوا السلوك . اما لابتياف فهو من أبناء موسكو ، وقد تخرج فى الجامعة ، ويتكلم باللغة الفرنسية ، ويعيش فى العاصمة حيث يوجد عدد كبير جدا من الناس الأذكياء المشهورين ، وحيث الحياة مرحة ، وحيث توجد كل أنواع المسارح الرائعة ، والسهرات الموسيقية ، والخياطات الممتازات ، ومحال الحلوى .. الانجيل يقول يجب أن تحب الزوجة زوجها ، والروايات تسرف فى تأكيد ذلك ، ولكن أليس من المحتمل أن يكون ذلك نوعا من المبالغة . الا يمكن أن يقوم زواج دون حب ؟ الا يقول الناس ان الحب سرعان ما يختفى ولا تبقى سوى السعادة ، وان هدف الزواج ليس الحب ، ولا السعادة ، ولكنه الواجب ، كتربية الأطفال ، وإدارة البيت ، ونحو ذلك ، بل لعل الحب الذى ذكره الانجيل يقصد به الاحترام ، والصبر ، وحب الزوج كما يحب الانسان جاره .

وقبل أن تذهب يوليا الى فرشها قرأت صلواتها المسائية بعناية ،
وركعت وهى تضغط بكفيها على صدرها وتحرق فى لهب الشمعة
المشتعلة تحت الأيقونة ، وابتهلت قائلة :

— « ساعدينى أيتها الأم المقدسة ! ساعدينى ! آه يارب ! » .

وأخذت تتذكر كل العوانس المتقدّمات فى السن اللائى التقت
بهن ، مخلوقات تعسة يائسة يتحسرن بمرارة لأنهن رفضن عروضاً
للزواج ، الا يمكن أن تلاقى نفس المصير ؟ ربما كان من الأفضل
أن تدخل ديراً للراهبات أو تصبح من اخوات الرحمة ؟

خلعت ملابسها واستلقت فى سريرها ، ورسمت علامة الصليب
فى الهواء المحيط بها . وفى نفس اللحظة ارتفع صوت الجرس عالياً
فى الصالة .

أحست برجفة مؤلمة تنتابها من أثر الصوت ، وقالت : « يالله ! »
وظلت مستلقية بلا حراك ، تفكر فى مدى سخف حياة الأقاليم وكآبتها
والى أى حد هى مرهقة للأعصاب مع ذلك . دائماً اما أن تتعرض
للألم ، أو الفزع ، أو تفقد أعصابك ، أو تشعر بالذنب بسبب ما ،
وفى النهاية تتمزق أعصابك حتى لتجد نفسك أحياناً مضطراً الى
الاختباء تحت أغطية السرير .



بعد نصف ساعة دق الجرس مرة أخرى بصوت مرتفع وبلا توقف
كالمرّة السابقة . لا بد أن الخدم نائمون ولم يسمعوها . أضاءت يوليا
سيرجيفنا الشمعة وأردت ملابسها بسرعة ، وهى ترتعد ، وقد
تملكها الغضب على الخدم ، ولكنها حين خرجت الى الصالة وجدت
الخادمة تفلق الباب بالفعل وقالت :

« ظننته السيد ، فاذا بها دعوة من مريض » .

عادت يوليا سيرجيفنا الى حجرتها ، وأخذت من الدولاب مجموعة

من أوراق اللعب ، وقالت لنفسها انها لو خلطت الاوراق جيدا ثم قطعتها ، فاذا كانت الورقة السفلى حمراء ، فان ذلك سيكون معناه « نعم » ، أى انها يجب أن تتزوج لابتييف ، اما ان كانت سوداء ، فالاجابة يجب أن تكون « لا » ، وكانت الورقة السفلى فى المجموعة هى العشرة السباتى الحمراء .

دفع هذا السكينة الى نفسها فاستغرقت فى النوم ، ولكن فى الصباح عاد الموقف يتأرجح من جديد بين « نعم » و « لا » . انها لو أرادت الآن لغيرت حياتها كلها . كانت مرهقة من التفكير فى الأمر الى درجة قريبة من المرض . ولكن ما كادت الساعة تجاوز الحادية عشرة حتى ارتدت ملابسها وذهبت لزيارة نينا فيودروفنا . كانت تريد رؤية لابتييف . لعله يبدو فى نظرها الآن أفضل مما كان ، ولعلها كانت مخطئة فى شأنه .

مضت فى طريقها ، تقاوم الريح ، وتقبض على قبعتها بكلتا يديها ، وقد ملأ التراب عينيها فأعجزها عن الرؤية .

حين دخل لابتيق الى حجرة شقيقته وفوجيء بوجود يوليسا سرجيفنا ، ملأه من جديد ذلك الاحساس المرير بالاذلال الذى عرفه أمس . واذا كانت بعد ما حدث تستطيع أن تحضر لزيارة شقيقته بمثل هذه الخفة معرضة نفسها لمقابلته ، فمعنى ذلك انها لا تحس بوجوده ، أو تعتبره أقل شأنًا من أن يثير فيها كراهية . ولكنه حين صافحها لاحظ وجهها الشاحب ، والتراب تحت عينيها ، وأدرك من النظرة الحزينة المذنبه التى وجهتها اليه انها تعاني هى الأخرى .

لم تكن فى حالة طيبة . وبعد زيارة قصيرة ، لم تستغرق أكثر من عشر دقائق ، نهضت واستأذنت . وقالت لابتيق وهى فى طريقها للخروج :

« هل توصلنى الى البيت يا الكسى فيودورفيتش ؟ » .

سارا صامتة ، كل منهما يقبض على قبعته بيده ، وتأخر لابتيق خلفها بضع خطوات محاولا حمايتها من الريح . ولكنها حين تحول الى الشارع الجانبى خفت حدة الريح فسارا جنبًا الى جنب .

وبدأت يوليا تقول :

« كنت قاسية معك أمس ، سامحنى » .

وكان صوتها يرتجف وكأنها توشك على البكاء . ومضت تقول :

— آه ، ما أشد تعاستى ! لم أستطع النوم طوال الليل .

وقال لابتيق دون أن ينظر اليها :

— « حقا ؟ لقد نمت جيدا ، ولكن هذا لا يعنى انى سعيد . لقد تحطمت حياتى . ومنذ أمس أحس وكأنى تسممت . أسوأ ما فى الأمر انتهى أمس ، واليوم أشعر أنى لم أعد مقيدا ، وعلى ذلك أستطيع أن أكلمك بصراحة . أنا أحبك أكثر من أختى ، وأكثر من أمى . . أستطيع أن أعيش بدون أختى وبدون أمى ، ولكن بدونك تصبح حياتى بلا معنى ، ولا أستطيع . . » .

وكالعادة ، خمن أهدافها . كان يدرك أنها طلبت منه توصيلها للبيت لأنها تريد أن تواصل حديث الأمس وأنها الآن تقوده الى بيتها ولكن ما الذى يمكن أن تضيفه لرفضها ؟ ماذا دبرت الآن ؟ أحس من نظراتها ، وابتسامتها ، بل من الطريقة التى تحمل بها رأسها وكتفيها وهى تسير الى جانبه ، أنها ما زالت لا تحبه . ماذا ، اذن ، يمكن أن تقول له ؟

كان الدكتور سرجى يوريستش فى البيت .

وحين رأى لابتيف قال وهو يخلط اسمه باسم العائلة :

« فيودور الكسييتش . تفضل ، مرحبا بك . أنا سعيد جدا لرؤيتك » .

لم يحدث أن رحب به الدكتور بمثل هذه الحرارة من قبل ، لذلك استنتج لابتيف أنه قد علم بأمر طلب الزواج ، وضايقه ذلك . وها هو ذا يجلس فى حجرة استقبال الدكتور ، وهى حجرة غريبة ، ذات أثاث رث سقيم الذوق ، ورسوم رديئة ، تبدو رغم ضخامة مظلة مصباحها ومقاعدھا الوثيرة أقرب للحظيرة الشاسعة منها الى حجرة الجلوس ، انها حجرة من طراز لا يمكن أن يشعر بالراحة فيه الا شخص من طراز الدكتور . أما الحجرة المجاورة لها فتكاد تكون ضعفا فى الحجم ، ويسمونھا الصالة ، وهى لا تحتوى الا على مقاعد مصفوفة الى جوار الحائط كما لو كانت فى مدرسة للرقص .

وبينما كان لابتيف جالسا هناك يحدث الطبيب عن شقيقته ، كان يشعر بالضيق لذلك خاطر غير المريح وهو أن يوليا سيرجيفنا لم تحضر لزيارة شقيقته نينا ولم تحضره الى هنا الا لتخبره بأنها غيرت رأيها . وقال لنفسه ، آه ما أفضح ذلك . ولكن الاسوأ من ذلك معرفته بأن مثل هذا الشك قد خطر بباله . تصور الأب وابنته جالسين فى ساعة متأخرة من الليل يناقشان الأمر باهتمام ، بل ويتجادلان حوله ، ثم يتفغان فى النهاية على ان يوليا كانت حمقاء حين رفضت مثل ذلك الرجل الثرى . بل لقد كان باستطاعته ان يسمع الكلمات التى يقولها الآباء عادة فى مثل هذه المناسبات .

« حقا ، أنت لا تحبينه ، ولكن فكرى فى كل المزايا التى ستستطيعين تحقيقها » .

نهض الدكتور ليقوم بجولاته ، وكان لابتيف على وشك الذهاب معه ، ولكن يوليا سيرجيفنا قالت :
« أرجوك ، لا تذهب » .

لقد انهارت ، وأكدت لنفسها بتعاسة ان رفض رجل كريم مهذب يحبها لا لشيء الا لأنه لا يعجبها ، وبخاصة اذا كان هذا الزواج سيتيح لها الفرصة لتغيير هذه الحياة السخيفة الكثيبة التى تحياها، وعدم جدوى وجودها ، فى الوقت الذى بدأ فيه شبابها يولى والمستقبل لا يلوح بحياة أفضل ، الرفض فى مثل هذه الظروف جنون ، ونزوة حمقاء ، لا بد أن الله سيعاقبها عليها .

حين اختفى وقع أقدام الدكتور ، التفتت يوليا فجأة الى لابتيف ووجهها شديد الشحوب ، وقالت فى صوت حاسم :

– « الكسى فيودوريتش ، لقد فكرت فى طلبك وقتنا طويلا أمس .. وقد قررت قبوله » .

انحنى لابتيف وقبل يدها ، وضغطت بشفتيها الباردتين بلا

احساس على جبهته . كان يحس ان هذا الاعلان للحب ينقصه أهم شيء — حبها وأن في الأمر كثيرا من الزيف البشع ، أراد أن يبكى ، أن يجرى هاربا ، أن يرحل على الفور الى موسكو ، ولكنها كانت واقفة هناك قريبة منه جدا ، حتى لقد غلبته العاطفة على أمره فجأة ، وتنبه الى انه قد فات أو ان التفكير الآن ، فضمها اليه ، وهو يتمم بكلمات الحب وقبل عنقها ، ثم وجنتها وشعرها .

ابتعدت يوليا ناحية النافذة ، وقد نهبتها هذه القبلات ، وكان كل منهما قد بدأ يندم على ما قاله ويسأل نفسه فى حيرة : « لماذا حدث هذا ؟ » .

وقالت يوليا وقد شبكت يديها فى يأس :

— « فقط لو علمت كم أنا تعسة ! » .

فسألها وهو يقترب منها وقد شبك يديه هو الآخر :

— ولكن لماذا ؟ ما سبب ذلك يا عزيزتى ، بالله عليك اخبرينى بالحقيقة ، اتوسل اليك ، لا شيء غير الحقيقة ؟ » .

أجابت وهى تغتصب ابتسامة :

— « لا شيء ، أعدك أن أكون لك زوجة مخلصة وفية . تعال هذا المساء أرجوك »



حين جلس فيما بعد مع شقيقته يقرأ لها رواية تاريخية ، تذكر ما حدث وآله أن يستجيب لعاطفته بمثل هذا الأسلوب الرخيص ، انها لا تحبه ، ومع ذلك فقد وافقت على الزواج منه — لا شك أنها قبلت بسبب ثرائه ، فضلت فيه أقل ما يقدره من نفسه ، ومن المحتمل وهى الفتاة الصغيرة الطاهرة المؤمنة بالله ، أن ماله لم يخطر ببالها بالمرّة ، ولكنها مع ذلك لا تحبه ، لا تحبه ، ومن هنا لابد أن لديها سببا عمليا — ربما كان غامضا وغير محدد ، ولكنه سبب عملي

رغم ذلك - للرجبة فى الزواج به . ان ادعاء الطبقة المتوسطة الواضح فى بيت الدكتور ، والدكتور نفسه ، انه وضيع ، وهو بحماقته اللزجة أشبه ما يكون بشخصية « جاسبر » فى رواية « أجراس كورنفيل » كل ذلك يثير اشمئزازه ، بل ان اسم يوليا نفسه يبدو الآن سوقيا فى اذنه . سوف يقفان أمام مذبح الكنيسة ، وكل منهما غريب تماما عن الآخر ، وهى خالية من أى عاطفة نحوه ، وكأن الزواج من تدبير خاطئة .

ان عزاءه الوحيد الآن ، وهو أمر عادى كالزواج نفسه ، ان آلف الناس صنعوا نفس الشيء ، وأن يوليا مع الوقت ، وحين تألفه أكثر ، فمن المحتمل أن تستطيع ان تحبه .
وقال وهو يفلق الكتاب ضاحكا :

— « روميو وجولييت ! نينا . أنا روميو . بوسعك ان تهئينى .
لقد خطبت يوليا سيرجيفنا اليوم » .

ظنته نينا فيودروفنا يمزح ، ولكنها حينما رأت أنه جاد شرعت فى البكاء . لقد أزعجها الخبر . قالت :

— « أظن أننى يجب أن اهتلك . ولكن اليس الأمر مفاجئا ؟
— لا ، ليس مفاجئا . لقد بدأ منذ مارس ، كل ما فى الأمر انك لم تلاحظى شيئا .. لقد أحببتها فى مارس حين رأيتها هنا فى حجرتك .

وقالت نينا فيودروفنا بعد قليل :

— « ظننتك ستتزوج فتاة من موسكو . فتاة من بيتنا ، فستكون أكثر بساطة . ولكن سعادتك هى التى تهم يا الكسى . ان زوجى جريجورى نيكولافيتش لم يحبنى أبدا ، وبوسعك ان ترى بنفسك كيف نعيش . أما أنت فأى امرأة تستطيع ان تحبك ، فانت كريم وماهر ، ولكن يوليا سيدة محترمة ، لقد تعلمت فى مدرسة

عامة ، ولكن الطيبة والذكاء لا يكفيان وحدهما . انها صغيرة ، وانت لم تعد فى مثل شبابها يا اليوشا ، كما أنك لست وسيما » .
ولكى تخفف من وقع الكلمات الاخيرة ربتت على خده وقالت :
- « لست وسيما ، ولكنك طيب جدا » .

واشتد انفعالها الى درجة دفعت حمرة خفيفة الى وجنتيها . هل من الصواب أن تبارك اليوشا ؟ على كل حال ، هى شقيقته الكبرى ، وهى تحتل مكان والدته . حاولت أن تقنع أخاها الحزين أن الزفاف ينبغى أن يكون رائعا ، وفى حفل مرح يقرن اسمه بالتوقير .



بدأ لابتيف يزور أسرة بيلافين ، باعتباره عريس المستقبل ، ثلاث أو أربع مرات كل يوم ، حتى لم يعد لديه وقت يريح فيه ساشا من قراءة الروايات التاريخية لامها . وكانت يوليا تستقبله فى حجرتها الخاصتين فى مؤخرة البيت التى تبعد كثيرا جدا عن حجرة الجلوس ومكتب أبيها . وكان يحب هاتين الحجرتين ، يحب الحيطان الداكنة ، والأيقونات فى الركن ، ورائحة العطور الثمينة وزيت مصباح الأيقونة . كان ثمة ستار يخفى سرير يوليا ومائدة زينتها ، وكانت أبواب صوان الكتب محددة بقماش أخضر ، والأرض مغطاة بأسطة سميقة من الصعب أن يسمع صوت لوقع أقدامها عليها . وقد استدل من ذلك على أنها ذات طبيعة متحفظة ، وانها ترغب فى حياة هادئة مسالمة منزلة .

وكانت لا تزال تعامل وكأنها مراهقة ، فليس لها نقود خاصة بها . وكثيرا ما حدث أثناء سيرها بالخارج أن تكتشف لخبيبة أملها أنه ليس معها ولا كوبك واحد . كان أبوها يعطيها مبالغ صغيرة لشراء الملابس والكتب ، بحيث لا تتجاوز مائة روبل فى العام . وكان هو

فى عسر من أمره بالرغم من عمله المعقول . كان يلعب الورق كل مساء فى ناديه ويخسر بصفة مستمرة ، فضلا عن ذلك كان يشتري المنازل عن طريق جمعية القروض المشتركة ، ويؤجرها لسكان لا يدفعون قيمة ايجارها بصفة منتظمة . وكان يصر ، رغم ذلك ، على ان الصفقة مربحة الى أبعد حد . والمنزل الذى يسكنه هو وابنته مرهون ، والنقود استغلها فى شراء قطعة من الارض الخالية بدأ يبنى عليها بالفعل منزلا من دورين بقصد رهنه هو الآخر .



ان لابتييف يعيش الآن غارقا فى نوع من الضباب ، لكأنه قد أصبح انسانا آخر ، ويعمل أشياء كثيرة ما كان من قبل يحلم بأن يعملها . فقد ذهب ثلاث مرات مع الدكتور الى ناديه ، حيث تعشى معه وقدم له نقودا لمشروعه الخاص بالبناء . ودعاه بانوروف ذات يوم على الغداء ، وقبل لابتييف دون تفكير . واستقبلته امرأة طويلة نحيلة فى حوالى الخامسة والثلاثين من عمرها ذات شعر رمادى وحاجبين سوداوين ، ولم تكن تبدو روسية . كان وجهها مغطى بطبقة من المساحين ، وابتسمت ابتسامة لزجة ، وصافحته بهزة من يدها جعلت السوار على ذراعها البيضاء يحدث صوتا رنانا . وخطر للابتييف أنها تبتسم بهذه الطريقة لأنها كانت تعسة وتريد أن تخفى هذه الحقيقة عن نفسها وعن الآخرين . ورأى فتاتين صغيرتين فى الخامسة والثالثة من عمرهما تشبهان ساشا .

كان الغداء يتكون من حساء اللبن ، ولحم بقرى بارد بالكرات ، والحلوى شكولاته ، وكلها مسطحة بلا طعم ، ولكن المائدة كانت تلمع بالشوك الذهبية ، وزجاجتين أنيقتين لعصير الطماطم والتوابل ، وثناء صغير عليه رسم بديع ، ووعاء ذهنى للفلفل . ولم يفتن لابتييف الى أن حضوره الى هنا أبعد ما يكون عن اللياقة

الا بعد أن انتهى من شرب حساء اللبن . كان من الواضح أن السيدة فى غاية الحرج ، وكانت تبتم بصفة مستمرة مظهره أسنانه البيضاء ، فى حين كان بانوروف يقدم شرحا علميا للحب وأصله . قال موجها حديثه الى زوجته باللغة الفرنسية :

« موضوع البحث هو ظاهرة كهربية خالصة . فجلد كل منا يحوى خلايا ميكروسكوبية تولد تيارا كهربيا . فاذا حدث وقابلت شخصا موازية مع تياراتك فالنتيجة هى الحب » .

وحين عاد لابتيف الى البيت وسألته شقيقته أين كان ، أحس بالخجل ولم يحرج جوابا .



طوال الأسابيع السابقة على الزفاف كان لابتيف مدركا لزيف موقفه . ان حبه يزداد يوما بعد يوم ، وهو يعتقد ان يوليا مخلوق شاعرى رائع ، ولكن تبقى مع ذلك هذه الحقيقة وهى أنها لا تبادل حبه ، وانها تبيع نفسها له . وفى بعض الاحيان كانت هذه الفكرة تدفعه الى اليأس ، وأكثر من مرة كان على وشك ان يترك الموضوع نهائيا . لم يعد بعد قادرا على النوم ، وكان يظل مستلقيا فى سريره وهو مستيقظ طوال الليل ، يفكر . ماذا سيقول لتلك السيدة فى موسكو التى يشير اليها فى خطاباته الى أصدقائه بذلك « الشخص » حينما يقابلها بعد الزواج ؟ وماذا سيكون رأى أبيه وأخيه فى زواجه من يوليا ، وهما من حيث صعوبة التفاهم معها أكان يخشى أن يكون أبوه فظا فى معاملته ليوليا فى أول لقاء معها . أما بالنسبة لشقيقه فيودور ، فثمة شىء غريب يحدث له مؤخرا . انه يكتب خطابات طويلة عن أهمية الصحة الجيدة ، وتأثير المرض على العقل ، وعن جو الدين ، ولكنه لا يشير بكلمة الى موسكو أو المؤسسة . وقد

ازعجت هذه الخطابات لابتيّف ، وبدأ له ان شخصية أخيه آخذة في التغير الى أسوأ .

تزوجا في سبتمبر في كنيسة بطرس وبولس بعد الصلاة ، وفي نفس اليوم رحل الزوجان الى موسكو . وحين ذهب لابتيّف وزوجته التي لم تعد بعد فتاة صغيرة في ثوبها الأسود وملحقاته ، ليودعا نينا فيودروفنا ، انفعل وجه المرأة المريضة وان ظلت عيناها جافتين تماما وهي تقول :

« اذا مت فخذى الفتاتين الصغيرتين لتعيشا معك » .

وأجابت يوليا سرجيفنا وقد بدأت شففتاها تختلجان وكذلك جفناها :

« آه ، سأفعل ، أعدك بذلك » .

وقال لابتيّف وهو في غاية التأثر .

« سأحضر لرؤيتك في أكتوبر ، من الله عليك بالشفاء يا أعز

الناس » .

سافرا في مقصورة خاصة . وكلاهما كان يشـعر بالتعاسة والقلق . جلست في ركن ، وقبعتها فوق رأسها تتظاهر بالنعاس ، واستلقى هو على الوسادة في مواجهتها تدور في رأسه مجموعة من الأفكار المزعجة : عن أبيه ، وعن « ذلك الشخص » ، وعما اذا كان مسكنه في موسكو سيعجب يوليا أو لا . ثم نظر الى زوجته التي لا تحبه ، وهو يقول لنفسه في يأس :

« لماذا حدث هذا ؟ » .

كانت أسرة لابتييف فى موسكو تعمل فى تجارة الاقمشة بالجملة ،
وتعامل فى مختلف أنواع الشرائط والمنسوجات وأقطان أشغال
الابرة ، والأزرار ، والبضائع المشابهة . وكانت مبيعاتهم تصل فى
السنة الى مليونى روبل ، اما مقدار صافى الأرباح فلم يكن أحد يعرفه
باستثناء الرجل العجوز . وكان ابناه والباثعون يقدرونه بما يقرب
من ثلاثمائة ألف روبل ، ويقولون أنه من الممكن أن يزيد مقدار مائة ألف
لو أن العجوز كف عن « تبذير المال ذات اليمين وذات اليسار » ،
أو بكلمات أخرى لو أنه امتنع عن البيع بالنسيئة بمثل هذا الاسراف .
فى خلال السنوات العشر الماضية تجمعت لدى المتجر ايصالات
قيمتها مليون روبل أصبح الحصول عليها أمرا ميثوسا منه ، وكلما
أثير الموضوع كان رئيس الكتبة يعلق بدهاء ، وهو يفمز بعينه فى
خبث ، قائلا :

« النتائج النفسية لهذا القرن » .

كانت العمليات الرئيسية تتم فى سوق المدينة ، فيما يطلقون عليه
اسم المخزن ، تصل اليه عن طريق فناء كئيب تفوح منه رائحة
الخبث ، ويتردد فيه وقع حوافر الجياد ، وثمة باب متواضع مدعم
بالحديد يؤدى من الفناء الى حجرة ذات نافذة واحدة منحوتة ،
وحوائط عليها بقع من فعل الرطوبة ، وتخطيطات بالفحم الاسود ،
والى اليسار حجرة أخرى ، وهى المكتب ، وكانت أكبر وأنظف ،

وفيها فرن حديدي ، ومائدتان ، ولكن نافذتها أشبه بطاقة السجن هي الأخرى . وفي هذه الحجرة سلم حجري ضيق يؤدي الى الدور الأعلى حيث مقر العمل الرئيسي . وهذه الحجرة كانت متسعة فعلا ، ولكن الكتابة الغالبة عليها ، والسقف المنخفض ، وأكوام العلب والحزم ، والناس الذين يسرعون فيها جيئة وذهابا ، كل ذلك جعلها تبدو مقبضة كحجرتي الدور الأرضي . كانت البضائع مكدسة على الأرفف في حزم ولفافات وصناديق من الورق المقوى ، ولولا أن بعض قطع القطن القرمزي ، أو شرابة ، أو قطعة شريط ، تطل من ثقب لفافات الورق لما استطاع أن يخمن نوع البضائع التي تباع هنا .

وكان من الصعب أن تتصور ان ثروات تصنع من هذه اللفافات المهوشة والصناديق المكومة ، وأن ما يقرب من خمسين شخصا ، باستثناء الزبائن ، يظلون مشغولين بأمرها كل يوم .

حين حضر لابتيف الى المتجر ظهر اليوم التالي لعودته الى موسكو ، كان العمال يحزمون البضاعة ويحدثون ضجيجا بمطارقهم ، فلم يستطع أحد ممن في حجرة الدور الأرضي أو في المكتب أن يحس بدخوله ، وكذلك لم يلتفت اليه رجل البريد الذي كان يهبط من الدور الأعلى حاملا حزمة من الرسائل وهو متجه من الضجيج .

وكان أول من قابله في الدور العلوي شقيقه فيودور الذي يشبهه الى درجة كبيرة حتى كان الكثيرون يعتقدون أنهما توأمان . وكان هذا التشابه يذكر لابتيف بصفة مستمرة بحقيقة مظهره ، والآن حين رأى ذلك الرجل الكئيب السوقي المظهر ، القصر القامة ، الأحمر الخدين ، ذى الشعر الخفيف والعجز الضيق المنخفض ، حين رأى لابتيف ذلك سأل نفسه : « ترى هل أبدؤ هكذا حقا ؟ » . قال فيودور وهو يقبل شقيقه ويضغط على يده :

– أنا سعيد برؤيتك . لقد ظللت أنتظرك كل يوم يا صديقى العزيز . كان الفضول يقتلنى منذ كتبت الى انك ستتزوج . وقد افتقدتك كثيرا أيضا – لقد مضى الآن نصف عام منذ رأيتك آخر مرة . حسنا ، ما الأخبار ؟ كيف حال نينا ؟ سيئة ؟ سيئة جدا ؟
– نعم ، سيئة جدا .

وقال فيودور وهو يتنهد :

– انها ارادة الله . والآن حدثنى عن زوجتك . هى جميلة على ما أعتقد ؟ انى مفرم بها فعلا ، فهى شقيقتى الصغرى الآن . وسوف أساعدك فى اعزازها .

ولمح لابتيف ذلك الظهر العريض المنحنى ، ظهر أبيه فيودور ستبانيتش . كان الرجل جالسا على مقعد صغير أمام منصة البيع المنخفضة يتحدث الى زبون ، وصاح فيودور :

– « أبى ، أنظر ماذا أرسل الله الكريم الينا . لقد عاد الكسى ! » .

كان فيودور ستبانيتش رجلا طويلا متين البنيان ، يبدو قويا فى صحة جيدة بالرغم من سنواته الثمانين وما فى وجهه من تجاعيد . وكان يتحدث بصوت غليظ عال يصدر من صدره العريض وكأنه صادر من برمىل . كان حليقا الا من شارب عسكرى صغير ، وكان يدخن السيجار . ولما كان يشعر بالحرارة بصفة مستمرة ، فهو يرتدى دائما ، وفى كل فصول السنة ، سترة مفتوحة من الكتان . ومنذ فترة قريبة أجرى عملية انفصال الشبكية فى عينيه ، فضعف بصره ، ولم يعد يدير المتجر ، بل خصص نفسه للثرثرة مع الزبائن واحتساء الشاي مع المربى .

انحنى لابتيف وقبل يد أبيه ثم شفتيه . وقال العجوز :

– « مضى زمن طويل منذ رأيناك لآخر مرة بابنى . زمن طويل

حقا . اظنك تريدني ان اهنئك على زواجك . حسن جدا ، انا اهنك » .

ورفع رأسه فانحنى لابتيف مرة أخرى وقبله . وسأل العجوز :
- « هل أحضرت السيدة الشابة معك ؟ » .

ودون أن ينتظر الإجابة ، واصل حديثه وهو يلتفت الى الزبون :
- « أبى العزيز ، هذا لكى أحيطك علما بأنى تزوجت فلانة بنت فلان . ان أحدا لا يحتاج اليوم الى نصيحة الأب العزيز ولا بركته . لقد أصبح الناس الآن فى منتهى الذكاء . حين تزوجت كنت قد جاوزت الأربعين ، ومع ذلك فقد ركعت على ركبتى أمام أبى وطلبت نصحه . الآن انتهى كل ذلك » .

كان العجوز سعيدا برؤية ولده ، ولكنه كان يحس أنه ليس من الصواب أن يبالغ فى تقدير قيمته ، أو يظهر سعادته بأى صورة من الصور . وكان لوقع صوته ، ولأسلوبه فى الحديث ، وقوله « السيدة الشابة » نفس الأثر المحزن الذى كانت تحدثه دائما فى لابتيف . كل شىء هنا يذكره بتلك الأيام التى كان يجلد فيها ويعيش على الخبز والماء ، وكان يعلم أن الصبية ما زالوا يجلدون ويضربون هنا ، وان هؤلاء الصبية أنفسهم حين يكبرون سيسيئون معاملة الآخرين . يكفيه أن يبقى فى المخزن خمس دقائق ليشعر أنه معرض فى أية لحظة للوم أو للضرب فوق أذنه .

وقال فيودور وهو يضرب الزبون على ظهره :

- « هالك يا أليوشا ، دعنى أقدملك الى وكيلنا فى تامبوف ، جريجورى تيموفيتش . انه نموذج للشباب الحديث : تجاوز الخمسين ، ووالد لأطفال صغار » .

وضحك كتبة المبيعات . وكذلك الزبون ، وهو عجوز نحيف

شاحب الوجه ، ضحك هو الآخر . وعلق رئيس الكتبة من خلف مكتب البيع :

« ظواهر الطبيعة الخارقة . كل ما يذهب مقدر له أن يعود » .

كان رئيس الكتبة رجلا طويلا فى حوالى الخمسين من عمره ، ذا لحية داكنة ، ويرتدى نظارات ، ويضع قلما خلف أذنه ، وكان من عادته أن يعبر عن نفسه بأغراض التعبيرات وأبعد التلميحات على الفهم ، ويتسم بخبث ليؤكد دهاء تعليقاته . وكان مفرما باستخدام تعبيرات مدرسية يفسرها على هواه ليجعل معانيه غامضة غير مفهومة ، بل كان يستخدم كلمات عادية بمعان غريبة ، كعبارة « بالإضافة الى ذلك » على سبيل المثال . فكلما قرر حقيقة مكونة من عدة فروع ، مد ذراعه اليمنى وقال « وبالإضافة الى ذلك ! » .

والمدهش فى الأمر أن كتبة الحسابات الآخرين والزبائن أيضا ، كانوا يفهمونه بسهولة ، كان اسمه بوشتاكين ، وهو من أهل كاشيرا . وقد شرع يقول على سبيل تهنئة لابتييف :

– « لقد قمت بعمل مجيد من أعمال الشجاعة ، أما فيما يتعلق بقلب المرأة فهو مثل شامل ! » .

وثمة شخصية أخرى هامة بالمخزن ، وهى ماكيتشيف ، وهو رجل قوى مكتنز الجسم ، تحيط برأسه الأصلع خصلات من الشعر الأشقر ، وسالفان من الجانبين . وقد تقدم نحو لابتييف وقال فى صوت خفيض يفيض بالاحترام :

– « يشرفنى يا سيدى أن أهئك .. لقد استجاب الله لدعوات والديك المبجلين . المجد لله يا سيدى » .

بعد ذلك تقدم بقية الكتبة واحدا اثر الآخر ، ليهنئوا السيد الشاب . وكانوا جميعا يرتدون ثيابا من أحدث طراز ويبدون فى غاية الاحترام وحسن التربية . كانوا يؤكدون نطقهم لواو المد ،

ولا يعطشون الجيم ، ولما كانت خطتهم القصيرة التى تفوهوا بها مليئة بحروف السين الهامسة بكثرة فقد بدت تهنئاتهم قريبة من أزيز سوط فى الهواء .

وسرعان ما أحس لابتيف بالضيق ورغب فى العودة الى البيت ، ولكن كان عليه أن يبقى ساعتين على الأقل محافظة على المظاهر . غادر مكتب البيع ليحدث ما كيتشيف ، ويسأله عما اذا كانوا قد اجتازوا صيفا ناجحا ، وهل هناك أخبار جديدة ، وقد أجابه الأخير باحترام وهو خافض العينين . وقدم غلام قصير الشعر ، يرتدى قميصا رماديا ، فنجان شاي دون طبق للابتيف ، وبعد قليل اصطدم صبى آخر بصندوق اثناء مروره وكاد يسقط ، وفى الحال التفت اليه ما كيتشيف الهادىء وقد اكفهر وجهه وصرخ فيه بعنف :
- « انظر أين تضع قدميك ! » .

كان صفار موظفى البيع سعداء لأن سيدهم الصغير قد تزوج وعاد الى المدينة . وكانوا يرمقونه بحب واهتمام ، وكلما مر به واحد منهم حاول أن يقول شيئا سارا ومحترما فى الوقت نفسه . ولكن لابتيف كان يعتقد أن كل ذلك غير مخلص ، وأنهم يتملقونه لا لشيء الا لأنهم يخافونه . ولم يكن باستطاعته أن ينسى كيف انتابت أحد الموظفين منذ خمسة عشر عاما نوبة عصبية فجسرى فى الشارع بملابسه الداخلية ، وظل يهز قبعته نحو نوافذ أسياده ويسبهم . وحينما عاد الى صوابه ، وجد الجميع متعة خاصة فى تذكيره كيف كان يصيح فى أسياده ويسميههم « استقلالين » بدلا من استقلالين .



كان أسلوب أسرة لابتيف فى معاملة موظفيهم حديث السوق كلها منذ زمن بعيد ، وأسوأ ما فيها أنه كان ثمة شيء آسيوى فى معاملة ستيبانيتش العجوز لهم ، فأولا ، لم يكن احد يعلم كم يدفع لموظفيه

الأثريين بوشتاكين وماكيتشيف ، وكانا يتقاضيان أكثر من ثلاثة آلاف فى السنة بما فى ذلك المكافآت التشجيعية ، ولكنه كان يدع الناس يعتقدون أنه يدفع لهما سبعة آلاف ، وكانت المكافآت توزع كل عام على جميع الموظفين ، ولكن بصفة سرية - حتى يقول كل موظف مدفوعا بالكرامة انه اخذ أكثر مما أعطى بالفعل ، ولم يكن المساعد يعرف متى يرقى ، وكذلك لا يعرف الكاتب ان كان السيد راضيا عنه أم لا .

لم يكن هناك شىء ممنوع صراحة ، ومن ثم فلم يكن أحد يعرف ما المسموح به بالضبط . فلم يكن الزواج محظورا عليهم ، ولكنهم لم يتزوجوا خشية أن يفضبوا سيدهم . وكان من المسموح أن يكون لهم أصدقاء ، وأن يخرجوا للزيارة ، ولكن البوابة كانت تغلق فى التاسعة ، وفى الصباح لكى يتأكد السيد من أنهم لا يسكرون ، كان يستدعيهم واحدا واحدا ويأمرهم بأن يتنفسوا فى وجهه .

وفى كل احتفال من احتفالات الكنيسة كان ينتظر منهم أن يذهبوا الى الصلاة المبكرة، ويقفوا فى الكنيسة حتى يراهم سيدهم . وفى عيد ميلاد السيد أو أى فرد من أسرته ، وفى المناسبات الأخرى ، كان ينتظر من الموظفين أن يكتبوا معا ويقدموا كهكة أو البوم صور . كانوا يعيشون فى الدور الأرضى فى طرف البيت ببياتنيتسكايا ، كل ثلاثة أو أربعة فى حجرة ، ويأكلون معا فى طبق مشترك ، بالرغم من وجود أطباق لكل منهم . ولو حدث وحضر واحد من أسيادهم وهم يأكلون كانوا يقفون جميعا .

وكان لايتيف يدرك منذ زمن بعيد أن أولئك الذين تشبعوا بتعاليم العجوز هم وحدهم الذين كانوا يعتبرونه حقا مصدر نعمتهم ، فى حين أن الباقين كانوا يعتبرونه عدوهم بلا شك .

وبعد أن غاب ستة أشهر لم يلحظ أى تغير الى أفضل ، بل الواقع أن ثمة عنصرا جديدا لا يبشر بخير . فأخوه فيودور الذى كان من قبل هادئا مفكرا شديد المهارة ، أصبح الآن يسير منهمكا فى المحل واضعا قلما خلف أذنه ، وقد بدا عليه الانشغال الشديد ، يضرب الزبائن على ظهورهم وينادى الموظفين « يا أصدقاء » . كان من الواضح أنه يؤدى دورا ، حتى لقد أصبح من الصعب على الكسى أن يتعرف عليه .

وكان صوت العجوز يفرقع بصفة مستمرة . ولما لم يكن لديه شىء أفضل يفعله ، فقد كان يسلى نفسه بالقاء محاضرات على زبائنه كيف يعيشون وكيف يتصرفون فى شئونهم ، ويضع نفسه مثلا يحتذى . وقد ظل لابتيف يسمع هذه النغمة الفخور الصادرة عن النفوذ الواسع عشر سنوات ، بل خمس عشرة ، بل عشرين سنة . كان العجوز يعبد نفسه . وحين تنصت اليه تظن أنه جعل زوجته الأخيرة ، واقرباءها غاية فى السعادة ، وأنه أسعد أبناءه وأحسن الى موظفيه ، وأنه قدم بالفعل للشارع كله ، ولكل معارفه ما يدعوهم للاعتراف بفضله الى الأبد . كل ما يصنعه جميل ، وإذا لاقى الآخرون متاعب فى أعمالهم ، فما ذلك الا لأنهم رفضوا الأخذ بنصائحه ، فلا شىء يمكن أن ينجح دون نصائحه . وفى الكنيسة كان دائما يقف أمام الآخرين جميعا ، بل وكان يعنف القسس حين يعتقد انهم لا يوجهون الصلاة كما يجب ، وكان يؤمن بأنه بذلك انما يخدم الله ما دام يتمتع برحمته .

حين أزفت الساعة الثانية كان كل من فى المتجر مشغولين ما عدا العجوز الذى استمر يفرقع بصوته ، ولما كان لابتيف لا يريد أن يظل واقفا لا يفعل شيئا ، فقد تسلم بعض الأقمشة المزركشة من احدى

الحائكات ، ثم أستقبل زبونا ، وهو تاجر من فولوجدا ، وحوله الى أحد البائعين .

كانت أصوات الحروف « ت . ف . ا ! » تملأ المتجر ، « فقد كانت الحروف تستخدم للدلالة على الأسعار وارقام البضائع » ، « ر . ي ، ت ! » .

وقبل أن يفادر لابتييف المتجر لم يودع سوى فيودور ، وقال له : « سأحضر زوجتى غدا الى بياتنيتسكايا ، ولكنى أحذرك : لو قال أبى لها كلمة واحدة نابية فسوف أرحل على الفور » .
وتنهذ فيودور وهو يقول :

– ما زلت كما أنت . تزوجت ولكنك لم تتغير . يجب أن تداعب العجوز قليلا يا الكسى . حسن جدا ، سننتظر غدا فى حوالى الحادية عشرة . تعال عقب الصلاة مباشرة » .
– أنا لا أحضر الصلاة .

– لا بأس ، هذا لا يهم . أهم شيء ألا تتأخر عن الحادية عشرة حتى يتسع الوقت أمامنا للصلوات وللغداء معا كذلك . أبلغ شقيقتى الصغيرة احتراماتى ، وقل لها انى أقبل يدها . أنا أعلم انى سأحبها »
ثم أضاف فيودور فى اخلاص تام :
– « انى أحسدك يا شقيقتى ! » .

وسار خلف الكسى وهو يهبط السلم ، وبينما لابتييف يسير فى شارع نيكولاسكايا قال لنفسه :

« لماذا ظل يتلوى هكذا وكأنه عار ؟ » كان حائرا بشأن التغير الذى طرأ على فيودور فمضى يقول لنفسه :

« وما أغرب حديثه : « أخى ، أخى العزيز ، الله رحيم ، صل لله » . وكأنه بوذا فى قصة ششدرين » .

فى الحادفة عشرة من صباح الؤوم النالى ، وكان ؤوم اءء ، اءء لابئف وزوءفه عربه ءفففة فى طرفقهما الى شارع بئانئفئسكافا . لم فكن ففكر فى الزفارة المقلبة ، لانه كان ءائفاف مما فمكن أن ففعله ففوءورسئبائفئش . وكانئ ؤولففا سرففئفا ، بعء لفلئف ، فى بئف زوءفا ، قء اعئبرئ زواففا ءطأ ، بل مصفبف ، ولو أنها كانئ مضطرة الى الءفا فى أى مءفنة أءرى فر موسكو لما كان باسئطاعئها اءئماله ابءا . لقف سءرئها موسكو ، كانئ ءب الشوارع والبفوء والكنائس ، ولو كان باسئطاعئها أن ءركب واءءة من ءلك الزءافاف الئف ءجرها ءفول أصفلة وءظل ففها من الصباف ءئى المساء ، ءسئئشق هواء الءرفب البارء ، لكان من المءئمل ألا ءشعر بالءعاسة هكءا .

ءبء الءوؤى لءام الءصان بءانب منزل أبفص ءءبء الطلاء ، مكون من ءورفف ، ءم ءار الى الئمفف الى ءاءل الفناء ، كان من الواضء أنهم فئئظرونهما ، لأن رءلفف من رءال البولفس ، والبواب وقء ارءءى ءوبا ءءفءا وءءاء عافا ءفففه قءعة من الءوؤ ، كانوا فقفون أمام البوابف ، وكان الشارع أمام المنزل والفناء مرشوشففن بالرمال ءئى مءءل البئف . ورفع البواب قبعئه ، وأءى رءالا البولفس ءءفة عسكرفف . واستقبل ففوءور الزوؤففن أمام الباب بوءه ءاء الى أبعء ءء ، قال وهو فقبل فء ؤولفا :

– « أنا فى غاية السعادة بمقابلتك أيتها الشقية الصغيرة ، مرجبا بك فى بيتنا » .

وقادهما على درجات السلم الى أعلى ، ثم خلال الممر المزدهم ، وكان البهو هو الآخر مزدهما بالناس وتتصاعد منه رائحة البخور . وهمس فيودور قائلا وسط الصمت الوقور :

– « سأقدمك الآن الى أبيتنا . انه رجل عجوز وقور ، رأس العائلة » .

كان فيودور ستبانيتش واقفا فى الردهة الكبيرة أمام مائدة معدة للصلاة . والى جواره القس فى زيه الرسمى الخاص بالاحتفالات . وقدم العجوز يده ليوليا دون أن يتفوه بكلمة . وخيم الصمت على الجميع فى حين شعرت يوليا بالارتباك .

وارتدى القس والشماس ملابسهما الكهنوتية . وأحضرت البخرة يتطاير منها الشرر وتنبعث منها رائحة البخور والفحم . وأضيئت الشموع . ودخل الموظفون الى الصالة على أطراف أصابعهم ووقفوا فى صفين أمام الحائط . وساد الهدوء التام فلم تعد نسمع نأمة :
– « امنحنا بركاتك يارب ! » .

وجرت مراسم الاحتفال بكل وقار ، دون أن يحذف منها شىء ، ثم قرىء ترتيلان ، الأول عن المسيح ، والآخر عن الأم المقدسة . وغنى منشدو جوقة الكنيسة وفى أيديهم أوراق عليها النغمات الموسيقية وأطالوا الفناء كثيرا . ولاحظ لابتيف ارتباك زوجته ، وبينما كان الترتيلان يقرآن ، والجوقة تنشد « امنحنا بركاتك يارب » ثلاث مرات بكل النغمات الموسيقية ، ظل ينتظر فى توتر ، وهو يتوقع أن يستدير العجوز فى أية لحظة ويبدى ملاحظة ما ، كأن يقول : « أنت لا تعرف كيف ترسم علامة الصليب » . كان وجود كل هؤلاء الناس ، والاحتفال كله بما فيه من القسس وأفراد الجوقة ، يبدو

كربها فى نظره . كان ثقيلًا وعتيقًا الى أبعد حد . ولكنه حينما رأى يوليا تحنى رأسها تحت الانجيل مع الرجل العجوز وتركع عدة مرات ، أدرك أن كل ذلك يعجبها ، وشعر بشيء من التحسن .

وقرب نهاية الاحتفال وبينما هم يفنون « حياة طويلة » ، قدم القس الصليب للعجوز ولالكسى كى يقبلاه ، ولكن حينما اقتربت يوليا سيرجفنا غطى القس الصليب بيده وأشار الى أنه يريد أن يتكلم . فلوح أحدهم بيده لجوقة كى تصمت . وبدأ القس يقول :
- « جاء النبى صمويل الى بيت لحم تنفيذًا لأمر الرب . وارتعد شيوخ المدينة لمقدمه وقالوا : « هل جئت مسالما ؟ » فأجاب :

« جئت مسالما لأضحى من أجل الله ، فطهروا انفسكم وتعالوا معى وضحوا » . فهل جئت أنت يا خادمة الرب يوليا الى بيتك بسلام ؟ » .

احمر وجه يوليا من العاطفة . وحين انتهى القس قدم لها الصليب لتقبله ، وقال بلهجة مختلفة تماما :

- والآن حان الوقت كى يتزوج فيودور فيودريتش ، وبسرعة » .
وبدأت الجوقة تنشد من جديد ، وانبعثت الحياة فى الجمع المحتشد ، فصدرت من الصالة ضجيج وحركة . وقبل العجوز يوليا ثلاث مرات ودموع الانفعال تملأ عينيه ، ثم رسم علامة الصليب على وجهها وقال :

- هذا بيتك . أنا رجل عجوز ، ولم أعد فى حاجة الى شيء » .
وتقدم الموظفون بتهنئاتهم التى ضاعت وسط ضجيج الجوقة .
وقدم الغداء ومعه الشمبانيا .

جلست يوليا بجوار العجوز الذى قال لها انه لا خير فى ان يعيشوا منفصلين ، وأنهم يجب أن يعيشوا معا فى بيت واحد ، لأن الانقسام والاختلاف دائما يؤديان الى الخراب ، وأضاف :

– لقد صنعت ثروة وأولادى ينفقونها . والآن يجب أن تعيش هنا في هذا البيت وتساعديني . فأنا عجوز ، وقد آن لى أن أستريح » .

ان فيودور شديد الشبه بزوجها ، ولكنه أكثر منه عصبية وخجلا ، وقد ظل يحوم حولها طوال الوقت وقبل يديها عدة مرات . وقال وقد برزت فى وجهه بقع حمراء :

– « اننا قوم بسطاء يا أختى الصغيرة ، نحيا حياة بسيطة ، مثل الروسيين البسطاء ، مثل المسيحيين » .



فى طريق العودة الى البيت ، كان لابتيف يحس براحة كبيرة لأن كل شىء قد مر بسلام ولأن مخاوفه لم يكن لها أساس ، وقال لزوجته :

« قد تتعجبين لأن رجلا ضخما قويا كأبى أنجب ابنين هزيلين مثلى أنا وفيودور . ومع ذلك فالتفسير غاية فى البساطة ! لقد تزوج أبى والدتى وهو فى الخامسة والأربعين ولم تكن هى قد تجاوزت السابعة عشرة وكانت تفزع منه . وقد ولدت نينا أولا حين كانت صحة أمى لا تزال جيدة نسبيا ، ولهذا السبب كانت دائما أقوى وأحسن صحة منا . أما أنا وفيودور فقد حملتنا أمنا وولدتنا بعد أن كان الفزع المستمر قد أنهكها تماما . انى أذكر كيف بدأ أبى يعلمنى أو بتعبير أدق يضربنى حين لم أكن قد بلغت الخامسة من عمرى . كان يجلدنى ، ويشد أذنى ، ويضربنى بقبضته على رأسى ، وكانت أول فكرة تخطر ببالى كل صباح هى هل سيضربنى أبى اليوم أم لا . لم يكن مسموحا لى ولا لفيودور باللعب أو الجرى هنا وهناك ، بل كان علينا أن نذهب مبكرين كل صباح لحضور الصلاة وتقبيل أيدي القسوس والرهبان ، وقراءة التراتيل . أنت متدينة وتحبين ذلك

كله ، ولكنى أخشى أن أكون أنا قد بعدت عن الدين . وكلما مررت
بكنيسة تذكرت طفولتى وملأنى الفزع . وحين بلغت الثامنة أخذنى
للعمل فى المخزن كصبي صغير عادى ، وكان ذلك أمرا سيئا بالنسبة
لى ، لأنهم كانوا يضربوننى كل يوم تقريبا ، وبعد ذلك ، حين أرسلت
للمدرسة ، كانوا يعطوننى دروسا حتى موعد الغداء ، وأقضى بقية
اليوم فى ذلك المخزن . واستمر ذلك حتى بلغت الثانية والعشرين ،
حين ذهبت الى الجامعة وقابلت بارتسيف الذى أقنعنى بترك
البيت . وفى رأى أن بارتسيف قد أفادنى كثيرا .

قال لابتيق ذلك وهو يضحك فى سعادة ، ثم أضاف :

« هيا بنا نزره الآن . انه واحد من أروع الاشخاص الذين
أعرفهم ! وسيصره أن يرانا ! » .

ذات يوم سبت من شهر نوفمبر قاد أنطون روبنشتين حفلة سيفمونية ، وكانت الصالة شديدة الازدحام وخائقة ، وكان لابتيف يقف خلف الاعمدة ، فى حين كانت زوجته وكوستيا كوتشيفوا يجلسان بعيدا الى الامام فى الصف الثالث أو الرابع . وكان العزف قد بدأ لتوه حين لمح ذلك الشخص « : بولينا نيكولايفنا . منذ زواجه وهو يخشى مغبة لقاءها . والآن ، حين التقت نظرتهما الصافية المباشرة بنظرته ، تذكر أنه حتى لم يكتب لها ولو كلمة قصيرة ودودة يشرح فيها الأمر ، فاحمر وجهه خجلا . صافحته بيد ثابتة قوية ثم سألته :

- « هل رأيت يارتسيف ؟ » .

وقبل أن تتيح له فرصة للإجابة ، أسرعت بخطوات عجلة واسعة وكأن أحدا يدفعها من الخلف .

كانت نحيلة وبسيطة الى ابعـد حد ، أنفها طويل ، وعلى وجهها نظرة اعياء حتى لتبدو وكأنها تتكلف جهدا كبيرا لتبقى عينيها مفتوحين وتظل واقفة على قدميها . وكانت عيناها داكنتين رائعتين تضيفان عليها مظهر الطيبة والذكاء ، ولكن حركاتها كانت حادة ومفاجئة . وكان من الصعب أن تتحدث اليها لأنها مستمعة سيئة ، كما أنها لا تستطيع التحدث بهدوء . ومن العسير أن تحبها . كانت تغطى وجهها بيديها وتضحك مدة طويلة ، ثم تعلن أن الحب ليس

أهم شيء فى الحياة ، ومثل فتاة فى السابعة عشرة كانت تطلب منه اطفاء الشموع كلها قبل أن يقبلها . لقد جاوزت الثلاثين بالفعل . وكانت متزوجة من مدرس ، ولكنها انفصلت عن زوجها منذ سنوات عديدة . وهى تكسب نفقات حياتها باعطاء دروس فى الموسيقى ، والعزف مع بعض الفرق الموسيقية الرباعية .

وحين كانوا يعزفون السيمفونية التاسعة مرت به كما لو كان الأمر مصادفة ، ولكنها لم تستطع أن تخترق الجمع الواقف خلف الأعمدة ولاحظ لابتيف أنها ترتدى نفس السترة المخملية التى ظلت ترتديها فى الحفلات الموسيقية خلال الموسمين الماضيين ، وكانت ترتدى قفازا جديدا ، وتمسك بمروحة جديدة أيضا ، ولكنها رخيصة كانت تحب أن ترتدى ثيابا جميلة ، ولكنها لم تكن موهوبة فى هذا المجال كما كانت تبخل بالنقود على شراء الملابس ، فترتب على ذلك أنها ترتدى ملابسها بلا عناية ، وكان من يراها فى الشارع مسرعة لاعطاء دروسها بخطواتها الطويلة المهملة ، يظنها شماسا صغيرا .

صفق الجمهور وطالب بالاعادة ، وقالت يوليا نيكولايفنا وهى تتقدم نحو لابتيف وترمقه بنظرة صارمة :

— « ستقضى الليلة معى . سنخرج من هنا ونتناول الشاي معا . أسمعتنى ؟ أنا مصرة . أنت مدين لى بالكثير ، وليس لديك حق أدبى يجعلك ترفض لى هذا الطلب التافه » .

ووافق لابتيف قائلا :

— « لا مانع » .

بعد ان انتهت السيمفونية فتحت الستار وأغلقت عدة مرات . ولم يكن الجمهور متعجلا وهو يفادر الصالة ، ولكن لابتيف لم يكن باستطاعته الذهاب دون أن يقول كلمة واحدة لزوجته . ولذلك فقد كان عليه أو يظل واقفا ينتظر عند الأبواب .

وقالت راسودينا شاكية :

« ساموت من أجل فنجان من الشاي . النار مشتعلة فى
روحي » .

وأجاب لابتيف :

« بوسعنا أن نتناول الشاي هنا . هيا بنا الى مشرب المرطبات
— لا أستطيع أن أبذر النقود بمثل هذه البسطة . لست تاجرا
ثريا .

قدم لها ذراعه ، ولكنها رفضت متعلقة بنفس الشرح المضجر الذى
سمعه منها مرات عديدة من قبل عن أنها لا تعتبر نفسها فردا من
الجنس الأضعف ، ولذلك فهى ليست بحاجة الى الاعتماد على
أى رجل .

وبينما كانت تتحدث ظلت ترقب الجمهور بعينها وتبادلت
التحيات عدة مرات مع معارفها — وهم فى الأغلب زملاء فى الدراسة
فى برامج « جوريه » الموسيقية وفى الكونسرفتوار ، ومن بينهم
بعض تلاميذها كذلك . كانت تصافحهم على طريقتهما السريعة
المهتزة ، ولكنها ما لبثت بعد ذلك ان بدأت ترتعد وكأنها أصيبت
بالحمى .

وأخيرا بدأت تتمم قائلة وهى تحدجه بنظرات هلعة :

« من هذه التى تزوجتها ؟ أين كانت عيناك يا أحمق ؟ ماذا
رأيت فى هذه المخلوقة الفبية الخاوية ؟ لقد أحببتك لعقلك ،
لروحك ، ولكن هذه اللعبة الخزفية لا تريد سوى نقودك ! » .

وتوسل اليها قائلا :

« لا داعى لهذا يا بوليننا أرجوك ، كل ما بوسعك أن تقولىه عن
زواجى قلته لنفسى مرات عديدة . لا تسببى لى ألما لا داعى له ،
أرجوك » .

ظهرت يوليا سرجيفنا فى رداء أسود تزينه جوهرة كبيرة من اللؤلؤ أرسلها اليها حموها عقب الاحتفال . وكان يتبعها مرافقوها . كوستيا ، وطببيان صديقان وضابط ورجل متين البنيان فى ملابس الطلاب ، واسمه « كيش » ..

وقال لابتييف لزوجته :

– « سيصحبك كوستيا الى البيت ، وسأحضر أنا فيما بعد » ..

هزت يوليا رأسها ومضت فى طريقها ، وارتعدت بولينا نيكولايفنا بعصبية وهى تتابعها بعينيها المليئتتين بالازدراء والحقد والألم ..

كان لابتييف غير راغب فى الذهاب الى بيتها ، لأنه توقع مشهدا حزينا ، دموعا وكلمات عنيفة ، لذلك فقد اقترح بدلا من ذلك – أن يذهب الى مطعم .

ولكنها استحثته قائلة :

– « لا ، لا ، هيا بنا الى بيتى . أتجروؤ على ذكر المطاعم أمامى ؟ » ..

كانت لا تحب المطاعم ، لأنها تعتقد أن هواءها مسمم بالدخان وأنفاس الرجال . فقد كانت متحيزة بطريقة غريبة ضد جميع الرجال الذين لا تعرفهم ، وتعتبرهم جميعا محترفى غزل من الممكن أن يعتدوا عليها عند أقل ائارة . فضلا عن ذلك فقد كانت موسيقى المطاعم تسبب لها صداعا .

وصلا الى نادى النبلاء ، واستأجرا عربة من أمامه ، وظل لابتييف يفكر فيها والعربة تمضى بهما الى أوسترهنكا ، وتدور متجهة نحو شارع سافبولوفسكى حيث تسكن راسودينا . انها محقة ، فهو مدين لها بالكثير . لقد التقى بها فى منزل صديقه يارتسييف ، وكانت تعطيه دروسا فى النظرية الموسيقية . وكان حبها له أصيلا خاليا

من كل أثر للأنايية ، وحتى بعد أن بدأ يعيشان معا واصلت اعطاء الدروس والعمل الى حد الانهالك كما كانت تفعل من قبل . وكانت هى التى علمته فهم الموسيقى وحبها .

قالت راسودينا بصوتها العميق وهى تطفى فمها بفراء يديها حتى لا تصاب بالبرد :

– « مملكتى كلها مقابل فنجان من الشاي ! لقد أعطيت اليوم خمسة دروس ، عليهم اللعنة ! تلاميذى شديدو الغباء والحمق ، حتى كدت أموت من الكمد . لست أدري متى ستنتهى هذه العبودية . بمجرد أن أوفر ثلاثمائة روبل سأهجر كل شيء وأرحل الى القرم ، حيث استلقى على الشاطيء وأعب الأوكسجين عبا . لكم أحب البحر ! » .

وقال لابتييف :

– « لن تذهبى الى أى مكان ، أولا لأنك لن توفرى شيئا ، وثانيا لأنك ستبخلين بالنقود . أرجو أن تعذرينى ، ولكننى يجب أن أقول هذا مرة أخرى : أحقا أن جمع هذه الثلاثمائة روبل كوبك بكوبك من هؤلاء العاطلين الذين يتلقون دروسا منك بدافع الملل لا أكثر ، أقل اذلالا من اقتراض هذا المبلغ من اصدقائك ؟ » .

أجابت محنقة :

– « ليس لدى اصدقاء ! وأرجوك لا تقل كلاما لا معنى له . أنا انتمى للطبقة العاملة ، ولهذه الطبقة ميزة واحدة : وهى أنها تعرف أنها غير قابلة للافساد ، وأن من حقها الا تقترض من التجار التمساء ، ومن حقها أيضا أن تحتقر من تشاء . لا يا سيدى ، أنت لا تستطيع شرائى ، فأنا لست يوليا ! » .

لم يدفع لابتييف لسائق العربة أجرته ، فقد كان يعلم أن ذلك لابد أن يثير سيلا آخر من الكلمات التى سمعها مرات كثيرة قبل

ذلك ، وتركها تدفع الأجرة بنفسها .

كانت بولينا تستأجر حجرة صغيرة مفروشة من سيدة تملك شقة ، وكان الايجار يشمل الإقامة والطعام . وكانت تملك معزفا كبيرا من طراز « بيكار » وضعته فى مسكن بارتسيف فى شارع بولشايا نيكييتسكايا ، وكانت تذهب الى هناك كل يوم لتتدرب عليه . وكانت الحجرة مؤثثة بعدد من المقاعد عليها أغطية فضفاضة ، وسرير عليه ملاءات بيضاء رفيعة ، ونباتات فى أصص تملكها صاحبة البيت ، وقد علق على الجدران صور مطبوعة ، ولم يكن فى الحجرة ما يوحى بأن ساكنتها امرأة ، فضلا عن أنها طالبة سابقة . فلم يكن فيها مائدة زينة ، ولا كتب ، ولا حتى مكتب . وكان من الواضح أنها تأوى الى فراشها بمجرد أن تعود من الخارج ، ثم تغادر البيت بمجرد أن تستيقظ من نومها فى الصباح .

دخلت الطباخة بأبريق الشاي الكبير . وضعت بولينا نيكولايفنا الشاي ، وهى ما زالت ترتعد ، لأن الحجرة باردة ، ثم بدأت تنقد المغنيات اللائى اشتركن فى السيمفونية التاسعة . وارتضى جفناها من التعب . واحتست فنجانا من الشاي ، أتبعته بثان ، ثم ثالث ، ثم قالت :

— « اذن فقد تزوجت ، ولكن لا تخف ، فلن أموت من الهجر ، بل سأستطيع أن أنتزعك من قلبى . ومع ذلك فانه يؤلمنى بحدة أن أعلم أنك سىء ككل الرجال ، وأن ما تحتاجه من المرأة ليس عقلها ، بل جسدها ، وجمالها ، وشبابها . . . الشباب ! » .

أعادت الكلمة بصوت صادر من أنفها ، وكأنها تحاكم شخصا ما لتسخر منه ، وضحكت وهى تقول :

— « شباب ! أنت فى حاجة الى الطهر ! نعم انه الطهر ! » .

وانفجرت ضاحكة وهي تلقى بنفسها على ظهر مقدها .
- « الطهر ! » .

وحينما كفت عن الضحك كانت عيناها مليئتين بالدموع .
سألته :

- « هل أنت سعيد على الأقل ؟

- لا ..

- هل تحبك ؟ ..

- لا .. »

وقام لابتيف وقد بدا عليه الانزعاج الشديد والتعاسة ، وأخذ
يذرع أرض الحجرة ، وعاد يكرر قوله :

- « لا ، الحقيقة أنى شديد التعاسة يا بولينا . ولكن ماذا
أفعل ؟ لقد ارتكبت خطأ جسيما ، ولم يعد من الممكن اصلاحه
الآن . ولا بد أن أتفلسف حوله . نعم ، لقد تزوجت دون حب ،
وبحماقة ، بل وربما لأسباب تجارية ، ولكنها ليست الدافع الوحيد ،
والآن من الواضح أنها عرفت خطأها وهي تتعذب . باستطاعتي
أن أرى ذلك . طوال اليوم تخاف أن تبقى معي وحدها ولو لخمس
دقائق ، وهكذا تبحث عن التسلية ، عن المجتمع ، فهي تشعر في
صحبتى بالخوف والخجل من نفسها .
- ولكنها لا تخجل من أخذ نقودك ؟ » .

وصرخ لابتيف :

- هذا غباء يا بولينا ، انها تأخذ النقود منى لأن الأمر يستوى
بالنسبة اليها اذا كان معها نقود أو لم يكن . انها امرأة طيبة طاهرة
العقل . تزوجتني ببساطة لانها كانت تريد البعد عن أبيها ، هذا
كل ما فى الامر » .

وسألته راسودينا :

– « هل أنت واثق بأنها كانت تتزوجك لو لم تكن غنيا ؟ » .

وأجابها لابتيق فى تعاسة :

– « لست واثقا من شىء .. لا شىء .. ولا أفهم أى شىء ..
بالله عليك يا بوليننا دعينا من هذا الموضوع .

– هل تحبها ؟

– بجنون .. !

وساد صمت طويل . احتست فنجانا رابعا من الشاى ، فى حين
أخذ لابتيق يذرع الحجره مفكرا فى زوجته ، لعلها الآن تتناول
عشاءها فى نادى الأطباء .

وسألته وهى تهز كتفيها فى غير اكتراث :

– « ولكن هل من الممكن أن تحب دون أن تعرف السبب ؟ لا ،
ليس هنا سوى انجذاب حيوانى ! أنت مأخوذ . لقد أعماك الجسد
الجميل ، ذلك الطهر ! ابتعد عنى ، فأنت قدر ! اذهب اليها ! » .

أشارت الى الباب ، ثم أخذت قبعتة وألقت بها اليه . وضع
معطفه فى سكون وخرج ، ولكنها جرت خلفه وتعلقت بكتفه فى
تشنج وانخرطت فى البكاء .

فقال وهو يحاول التخلص من قبضتها بلا جدوى :

« بوليننا ، أرجوك ! لا داعى لهذا ! أتوسل اليك هدى
نفسك ! » .

أغلقت عينيها ، وشحب وجهها ، وتحول أنفها الطويل الى لون
باهت كئيب وكأنه أنف جثة ، ولم يستطع لابتيق أن يفك أصابعها
المتقلصة . فقد أغمى عليها . حملها برفق ووضعها فوق السرير
وجلس بجوارها ما يقرب من عشر دقائق حتى استعادت رشدها .
كانت يداها باردتين ، ونبضها يتردد ضعيفا وفى غير انتظام .

وقالت وهى تفتح عينيها :

– « عد الى بيتك ، هيا اذهب ، والا شرعت فى البكاء مرة
أخرى . يجب أن أسيطر على نفسى » .



تركها وذهب الى بيته بدلا من نادى الأطباء حيث ينتظره الآخرون . وطوال الطريق الى بيته ظل يسأل نفسه بمرارة لماذا لم يتزوج هذه المرأة التى أحبته حقا وكانت ذات يوم زوجته وصديقتة . لقد كانت هى الشخص الوحيد الذى ارتبط به ، فضلا عن ذلك ، اما كان من الممكن أن يكون شيئا رائعا وجديرا بالتقدير أن يهب السعادة والبيت والحياة الآمنة لمثل هذه المخلوقة الذكية المترفعة التى تعمل بجهد وعزيمة ؟ وسأل نفسه : من يكون حتى يتطلع للجمال ، والشباب ، ولتلك السعادة البعيدة عن متناول يده ، والتى ، وكان الأمر عقوبة أو سخرية لاذعة ، قد جعلته فى هذه الحالة الذهنية الكئيبة الحزينة منذ أكثر من ثلاثة أشهر ؟ لقد مضى زمن طويل منذ انتهى شهر العسل ، ورغم ما قد يكون فى ذلك من مفاجأة للعقل ، فانه حتى الآن لا يعرف حقيقة شخصية زوجته . انها تكتب خطابات من خمس صفحات لصديقاتها من زميلات المدرسة ولأبيها ، ويبدو أنها تجد الكثير الذى تكتب عنه ، ولكنها معه لا تتحدث الا عن الجو ، أو انه قد حان وقت الغذاء أو العشاء . وحين يرقبها وهى تتلو صلواتها ، قبل أن تذهب الى فراشها ، وتقبل صلبانها الصغيرة وصورها المقدسة لا يملك نفسه من التفكير بحقد ، « لماذا تصلى ؟ » كان يهينها فى عقله ويهين نفسه فيزعم أنه حين ينام معها فى الفراش ويأخذها بين ذراعيه ، انما يأخذ ما اشتراه ودفع ثمنه ، ولكن ذلك كان يبدو فظيحا . لو أنها فقط كانت امرأة قوية جسور آئمة لاختلف الأمر ، ولكنها كانت صغيرة جدا ، شديدة التقوى والرقّة ، ولها عينان بريئتان الى أبعد حد !

وهى عروس كان تدينها يؤثر فيه ، أما الآن فهو يرى فى هذه المجموعة من الأفكار والعقائد التقليدية سدا منيعا يخفى الحقيقة . لقد أصبحت حياته بالفعل عذابا خالصا . وحين تجلس زوجته الى جواره فى المسرح وتتنهد أو تضحك من قلبها كان يؤله أن يرى أنها تستطيع أن تمتع نفسها دون أن تقاسمه سعادتها . أما الشيء العجيب حقا فهو أنها استطاعت أن تتفاهم الى أبعد حد مع أصدقائه، وكانوا جميعا يعرفونها خير معرفة ، فى حين ظل هو لا يعرف عنها شيئا ، ولا يملك سوى أن يتبلد ويعانى آلام الغيرة فى صمت .



حين وصل لابتيف الى البيت ، ارتدى خفيه وسترة التدخين ، وجلس فى حجرة مكتبه ليقرا فى رواية . ولم تكن زوجته قد عادت بعد . ولكن بعد حوالى نصف ساعة سمع رنين جرس الباب ، وسمع صوت « بيوتر » وهو يسرع ليفتح . كانت يوليا . دخلت حجرة المكتب فى معطفها المصنوع من الفراء ، وقد احمرت وجنتاها من تأثير الصقيع .

وقالت لاهثة :

– « هناك حريق كبير فى بريسنيا . السماء حمراء مشتعلة . وأريد أن اذهب الى هناك بالعربة مع كوستيا .
– اذهبي ، بكل سرور .

هدأت نفس لابتيف لمراى نضارة الصحة والفرع الطفولى فى عينيها ، فظل يقرأ نصف ساعة أخرى ، ثم آوى الى الفراش .



وفى اليوم التالى أرسلت اليه بولينا نيكولايفنا فى المخزن كتابين كانت قد أخذتهما منه ، وكل خطاباته وصوره . ومعها خطاب مغلق مكون من كلمة واحدة باللغة الايطالية : « كفى ! » .

فى أواخر أكتوبر ازدادت حالة نينا فيودروفنا سوءا بشكل واضح فنقص وزنها بسرعة ، وطرا تغير على ملامح وجهها . وبالرغم من الألم الممض كانت تتصور أنها فى طريقها للشفاء ، وفى كل صباح كانت ترتدى ملابسها وكأنها فى أتم صحة ، ثم تقضى بقية اليوم مستلقية فى الفراش وقد ارتدت ملابسها كاملة . وقرب النهاية أصبحت شديدة الثرثرة . فكانت تستلقى على ظهرها تتحدث بصوت منخفض وهى تلهث من الاعياء . وجاء الموت فجأة .

كانت ايلة قمرية صافية ، وأهل المدينة يركبون الزحافات ويسيرون بها فوق الجليد الجديد ، وكان الضجيج مسموعا فى الحجرة . وكانت نينا فيودروفنا مستلقية فى سريرها ، وساشا ، التى لم يعد هناك الآن من يسرى عنها ، جالسة بجوارها وقد غلبها النعاس .

وكانت نينا فيودروفنا تقول بصوتها الخافت :

- « لست أذكر اسم أسرته ، ولكن اسمه الأول كان ايفان ، ولقبه كوتشفوا . كان موظفا حكوميا ، ولكنه فقير جدا ، وسكير بصورة مخيفة ، أراح الله روحه . كان يزورنا بصفة منتظمة ، وكل شهر كنا نعطيه رطلا من السكر وكيسا من الشاى ، ونقودا أيضا فى بعض الأحيان . ثم ، ذات يوم رائع ، شرب صديقنا كوتشفوا كمية أكثر قليلا ومات ، أحرق نفسه بالفودكا . وترك ابنا ، طفلا

صغيراً فى حوالى السابعة . يتيم صغير مسكين . فأخذناه وخبأناه فى المخزن الملحق بمساكن الموظفين ، وظل أبى سنة كاملة لا يعلم عنه شيئاً . وحينما علم بأمره لم يقل شيئاً . وحينما بلغ كوستيا ، وهو الطفل اليتيم ، التاسعة من عمره - وكنت قد خطبت وقتذاك - أخذته الى كل المدارس الابتدائية . ولكن الجميع رفضوه . ويكى ، الطفل المسكين ، فقلت له : « لماذا تبكى أيها الطفل الغيبى ؟ » وأخذته الى المدرسة الابتدائية فى رازجولاي ، وهناك ، شكراً لله ، قبلوه . وكل يوم كان على ذلك الصبى الصغير أن يسير الطريق الطويل من بيانيتسكايا الى « رازجولاي » ومن رازجولاي الى بيانيتسكايا . ودفع اليوشا مصاريف تعليمه . ومن حسن الحظ أن الطفل ذاكر دروسه بجد ونجح . وهو الآن محام فى موسكو ، وصديق لاليوشا ، ومتعلم مثله . انه لشيء جميل أن نأخذ صبياً مسكيناً ونقدم له المأوى . لابد انه الآن يذكرنا فى صلواته . . . نعم . . . » .

أخذ الصوت يخفت ويخفت ، وفترات الصمت تطول ، ثم بعد صمت قصير ، اذا بها تجلس فجأة وتقول :
- « أشعر أنى . . لست على ما يرام . فليرحمنى الله ! انى لا أقوى على التنفس ! » .

وأدركت ساشا ان أمها ستموت بعد قليل ، وحينما رأت كيف تهدلت وجنتاها فجأة خمنت أن النهاية قريبة وفرغت ، وأخذت تنتحب قائلة :

- « أمى العزيزة ، لا تذهبي ! لا تذهبي ! »

- اسرعى الى المطبخ يا عزيزتى واطلبى من أحدهم أن يذهب لاحضار أيبك . انا أشعر بأنى مريضة جداً ! » .

جرت ساشا فى كل الحجرات تنادى الخدم ، ولكنهم كانوا جميعاً

بالخارج ماعدا شقيقتها الصفرى « ليدا » التى كانت نائمة على صندوق كبير فى حجرة الطعام دون وسادة ، وقد ارتدت ملابسها كاملة . وأسرت ساشا ، دون أن تتوقف لترتدى معطفها أو غطاء حدائها ، الى الفناء ، ثم الى الشارع . وكانت الممرضة جالسة على مقعد خارج البوابة تراقب زحافات الجليد . وثمة فرقة موسيقية عسكرية كانت تعزف هناك عند النهر حيث حلبة الانزلاق على الجليد .

وصرخت ساشا وهى تنتحب :

« أيتها الممرضة ، أيتها الممرضة ، أمى تموت . ويجب أن نحضر أبى حالا » .

صعدت الممرضة الى حجرة النوم ، وألقت نظرة على المريضة ثم وضعت شمعة مشتعلة بين يديها . فى حين أخذت ساشا تجرى هنا وهناك فى هلع ، تتوسل الى شخص ما ، أى شخص ، أن يذهب ليحضر أباه ، ثم ارتدت معطفها وغلالتها ، وجرت مسرعة الى الخارج . كانت تسمع الخدم يقولون ان أباه له زوجة أخرى وابنتان أخرتان تعيشان فى شارع بازارنيا . فجرت الى الشارع ، تبكى وتخجل من المارة ، وتتعثر فى حفر الجليد العميقة ، وترتعد من البرد .

مرت عربة فى الشارع ولكنها لم تستأجرها خشية أن يأخذها السائق الى خارج المدينة حيث يسرقها ويلقى بها فى المقبرة (فقد سمعت مرة الخدم يروون حادثة كهذه وهم يتناولون الشاي) . ظلت تسرع وتسرع ، وتلهث من الاعياء ، وتنتحب وهى ماضية فى طريقها . وحين وصلت الى شارع بازارينا توقفت لتسأل امرأة مارة أين يسكن السيد بانوروف . وبدأت المرأة تقدم لها وصفا تفصيليا ، ولكنها حين رأت الطفلة لا تفهم شيئا مما تقوله ، قادتها

من يدها الى منزل من دور واحد .

كان الباب الخارجى مفتوحا ، فجرت ساشا مسرعة عبر صالة المدخل ، ثم خلال ممر وجدت نفسها بعده فى حجرة دافئة مضاءة بنور قوى ، ورأت أباهما جالسا بجوار ابريق شاي كبير يتناول الشاي مع سيدة وفتاتين صغيرتين . ولكن ساشا كانت قد أصبحت الآن عاجزة عن الكلام ، ولم يكن باستطاعتها سوى أن تنتحب . وخمن بانوروف على الفور سبب مجيئها ، فسأل :

– « هل ماما ؟ هل هى فى حالة سيئة ؟ أخبرينى يا فتاة ، هل أمك فى حالة سيئة ؟ » .

ونفض مسرعا وأرسل يطلب عربة .

حين وصلا ، كانت نينا فيودروفنا جالسة فى السرير محاطة بالوسائد وممسكة بشمعة فى يدها . كان وجهها داكنا وعيناها مغلقتين بالفعل . وكانت حجرة النوم مليئة بالناس – الممرضة ، والطباخة ، وخادمة الردهة ، والأجير بروكوفى ، وعدة غرباء متجمعين عند باب الحجرة . وكانت الممرضة تهمس ببعض التعليمات ولكن أحدا لم يفهم ماتريد منهم عمله . والى جوار النافذة البعيدة عند نهاية الغرفة وقفت ليذا ، لم تستيقظ بعد تماما من نومها ، تحديق فى أمها بعينين جامدتين .

أخذ بانوروف الشمعة من يد « نينا فيودروفنا » وطوح بها فوق مائدة الزينة ، وقد قطب وجهه فى امتعاض .

وقال وكتفاه تهتزتان :

« هذا فظيع ! » .

ثم أضاف برقة :

« نينا ، يجب أن تنامى . نامى ، يا عزيزتى » .

وحين وصل القس والدكتور سيرجى بوريستش ، كان الخدم

قد بدأوا يرسمون علامات الصليب على صدورهم فى تقوى ،
ويتمتمون بالصلوات على روح سيدهم .

وقال الدكتور فى ذهول وهو يدخل الى حجرة الاستقبال :
- « هذا أمر محزن جدا . كانت لا تزال صغيرة . لم تتجاوز
الأربعين بعد » .

وكان من الممكن سماع صوت الفتاتين الصغيرتين تنتحبان بصورة
تستثير الاشفاق . وجاء بانوروف شاحب الوجه مبلل العينين الى
الطبيب ، وقال بصوت خافت واهن :

- « يارجلى العزيز ، اصنع فى معروف واكتب برقية الى موسكو
نيابة عنى . فأنا مرهق الى أبعد حد » .

وأحضر الطبيب شيئا من الحبر ، وكتب برقية الى ابنته :

« توفيت بانوروف فى الساعة الثامنة مساء . اخبريهم أن منزل
الزوج سيباع سدادا للديون ، الاعلان فى التاسع ، والمزاد فى الثانى
عشر . لا تتخلفى » .

كان لابتييف يسكن فى شارع جانبى متفرع من مالايا دميترفكا ، غير بعيد من كنيسة سانت ييمين القديمة . وبالإضافة الى البيت الكبير الذى يواجه الشارع ، استأجر لابتييف جناحا من دورين فى الفناء لصديقه كوستيا كوتشيفوا ، وهو محام شاب يناديه جميع أفراد أسرة لابتييف بـ « كوستيا » ببساطة منذ عرفوه وهو طفل . وكانت تسكن فى الجناح المقابل المشابه لجناح كوستيا أسرة فرنسية مكونة من زوج وزوجة وخمس بنات .

كان يوما باردا ، وقد علا الصقيع النوافذ . واستيقظ كوستيا فى الصباح ، وتناول خمس عشر قطرة من دواء ما ، وعلى وجهه نظرة قلق ، ثم أخذ من صوان الكتب عمودين صغيرين من الحديد أدى بهما بعض التمرينات الرياضية . كان طويلا شديد النحافة له شارب بنى كث ، ولكن أكثر ما يلفت النظر فيه هو ساقاه الطويلتان بصورة غير عادية .

واندفع « بيوتر » وهو خادم فى أواسط العمر ، يرتدى سترة وسراويل من القطن وحذاء عاليا ، وأدخل الابريق الكبير وصنع الشاى وقال :

- « انه يوم بديع يا سيدى » .

- « ممكن يا صديقى ، ولكن المشكلة انك أنت وأنا ليس لدينا الكثير مما يسر » .

وصعد بيوتر تنهيدة مهذبة ، فسأله كوستيا :

– « ماذا عن الفتاتين الصغيرتين ؟

– « لم يحضر القس بعد . والكسى فيودوريتش يعطيها درسا بنفسه » .

عشر كوستيا على جزء غير متجمد على زجاج النافذة ، فبدأ يجرب منظار الأوبرا المعظم ويصوبه نحو نوافذ المنزل الذى تسكن فيه الأسرة الفرنسية ، ثم ما لبث أن قال :

– « لا أستطيع أن أرى شيئا » .

فى هذه الأثناء كان الكسى فيودوريتش يعطى درسا فى الخط لساشا وليدا . وكانا يقيمان فى موسكو الآن ومنذ ستة أسابيع . يشغلان الطابق الأرضى من الجناح مع مرييتهما . وكان يحضر اليهما مدرس المدرسة العامة بالمدينة وقس ثلاث مرات فى الأسبوع . ان ساشا تدرس الآن « العهد الجديد » ، فى حين بدأت ليذا منذ قليل العهد القديم . وفى الدرس الأخير طلب القس من ليذا أن تذاكر النص حتى ابراهام .
قال لابتيف :

– « والآن ، لقد أصبح لادم وحواء ابنان . أليس كذلك ؟ ما اسمهما ؟ هل تذكرين ؟ » .

حدقت ليذا ، بوجهها المقطب كالعادة ، الى المائدة ، وشفتيها تتحركان ، ونظرت اليها الفتاة الأكبر منها بقلق . وقال لابتيف :

– « أنت تعرفين جيدا . لا ترتبكى ، حسن ، ما اسم ابنى آدم ؟ » .

وهمست ليذا :

– « آييل وهابيل » .

فصحح لها لابتيف :

– « قابيل وهابيل » .

وانحدرت دمة كبيرة على خد ليدا وسقطت على الكتاب . وكانت ساشا هي الأخرى على وشك الانخراط فى البكاء ، فخفضت عينيهما واحمر وجهها . ولم يستطع لابتيف أن يتكلم من شدة الاشفاق . فنهض وأشعل سيجارة . وفى تلك اللحظة هبط كوستيا من الدور العلوى وفى يده جريدة . وقفت الفتاتان وحيته دون أن ينظرا اليه .

– « أرجوك ياكوستيا ، خذهما مع درسهما ، أرجوك . أخشى أن انخرط فى البكاء أنا أيضا ، فضلا عن أنى يجب أن أكون فى المخزن قبل الغداء » .

– لا مانع . . «

خرج الكسى فيودوريتش ، وجلس كوستيا أمام المائدة متجهم الوجه شديد الصرامة ، وقرب الانجيل اليه وقال :

– « والآن ، أين وصلتما ؟ »

وقالت ساشا :

– « انها تعرف الطوفان » .

– حقا ، حسنا ، لنتحدث عن الطوفان . لنتته من أمر الطوفان » .

أجرى كوستيا عينيه على الوصف الموجز للطوفان فى الكتاب ، ثم قال :

– يجب أن أقول لكما مع ذلك ، انه لم يكن هناك طوفان كذلك الموصوف هنا . ولم يكن هناك نوح أيضا . فقبل مولد المسيح بالآف السنين حدث فعلا فيضان ، وتجدان اشارة له لا فى الانجيل العبرى وحده بل كذلك فى كتب الشعوب القديمة كاليونانيين والكلدانيين والهندوس . ولكن مهما كانت ضخامة هذا الفيضان فلا يمكن أن يفرق الكرة الارضية كلها . ربما أغرق السهول – ولكنه لم

يفرق الجبال . لا ضرر فى قراءة هذا الكتاب ولكن لا داعى لأن تصدقا كل ما يقول .

انهمرت دموع ليدا من جديد ، ثم ابتعدت وفجأة اذا بها تنفجر باكىة بصوت مرتفع ، حتى لقد قفز كوستيا من مقعده فى خيبة أمل . .

قالت وهى تنتحب :

– « أريد أن أعود الى البيت ، الى بابا والمرضة » .

وبدأت ساشا تبكى هى الأخرى . فصعد كوستيا الى الدور العلوى واتصل بيوليا سيرجيفنا بالتليفون :

– « يا فتاتى العزيزة ، لقد عادت الطفلتان الى البكاء مرة أخرى . ولا أعلم ماذا أفعل » .

جاءت يوليا سيرجيفنا مسرعة من البيت الكبير وقد وضعت فوق ثوبها وشاحا من الصوف ، وكانت ترتعد بعض الشيء من تأثير البرد . وتوسلت الى الطفلتين وهى تضمهما اليها :

– « استمعا الى ، استمعا ، سيحضر أبوكما اليوم ، لقد أرسل برقية الى . وما حدث لماما أمر محزن جدا ، وقلبى يتمزق من أجلكما أنتما الاثنتان ولكن ماذا نستطيع أن نفعل ؟ اننا لا نستطيع أن نعترض على ارادة الله ! » .

وحينما كفتا عن الصراخ ، ضمتها اليها ، وصحبتهما معا فى نزهة بالعربة ، مررن خلالها بشوارع مالايا دميروفكا ، ثم امام ستراستنوا حتى تفرسكاي . وفى كاتدرائية أفرسكى وضعت كل منهن شمعة امام الصور ، وركعت وصلت . وفى طريق العودة نزلن فى فيلييوف واشترين بعض الحلوى .

كانت أسرة لابتييف تتناول غداءها فيما بين الساعة الثانية والثالثة وكان بيوتر يقوم بالخدمة على المائدة . وبيوتر كان يصنع كل

شئ . فى الصباح يخرج لاحضار الحاجيات من مكتب البريد ، ومن المخزن ، ومن محكمة الحى لكوستيا ، ويقدم الوجبات الى جانب ذلك . وفى المساء يصنع السجائر ، وفى الليل يفتح الباب ، وفى الخامسة صباحا يكون قد أوقد الأفران . ولا أحد يعلم متى ينام . كان مفرما بفتح زجاجات الصودا ، وكان يفتحها بمهارة فائقة ، دون أن تنسكب منه قطرة واحدة .

وقال كوستيا وهو يهز كأسا من « الفودكا » أمام طبق حسائه :
- « هنا نبدأ » .



فى بادئ الأمر لم تكن يوليا سيرجيفنا تحب كوستيا ، فصوته الغليظ ، والتعبيرات التى يستخدمها مثل « ضربه بالشلوط » ، « دفعه فى وجهه » ، « عفن » ، « يمون ابريق الشاى الكبير » ، وعادته فى خبط الكئوس والقاء الخطب قبل كل كأس من النبيذ ، بدا لها ذلك سوويا الى أبعد حد . ولكنها حينما عرفته أكثر بدأت تشعر بمنتهى الراحة فى صحبته . فقد كان صريحا معها ، ويحب أن يثرثر معها بهدوء فى المساء ، بل وأكثر من ذلك سمح لها بقراءة رواياته ، التى ما زال يحتفظ بها سرا يخفيها حتى عن أصدقائه المقربين من أمثال لابتيف وبارتسييف . قرأت الروايات وأثنت عليها لكيلا تؤذى مشاعره ، وسره ذلك الى أبعد حد . فقد كان يعتقد أنه سيصبح ، ان عاجلا أو آجلا ، كاتبا مشهورا . وكان لا يكتب الا عن الفلاحين والأعيان ، بالرغم من أنه لم يعيش فى الريف الا فى مناسبات قليلة حين كان يزور أصدقاءه ولم يدخل بيتا ريفيا الا مرة واحدة فى حياته حين ذهب الى « فولو كولامسك » فى مهمة قانونية . تجنب الكتابة عن الحب ، وكان الموضوع يزعجه ، ولكنه كثيرا ما وصف الطبيعة ، وكان ضعيفا أمام تعبيرات

مثل « الأبعاد الخيالية للجبال » ، « تكوينات السحب الرائعة » ،
أو « سيمفونية من الأصوات الخفية المنسجمة » . ولم تطبع
رواياته أبدا ، وهى حقيقة يعتبر الرقيب مسئولا عنها .
كان يحب عمله كمحام ، ولكنه يعتقد أن الأدب هو مهنته الأصيلة
وليس القانون . لقد سحره الفن دائما وكان واثقا بأن طبيعته
طبيعة فنية رائعة . لم يكن يفنى ولا يعزف على أى آلة وأذنه ليست
موسيقية بأية حال ، ولكنه كان يذهب الى الحفلات السيمفونية
والفيلهارمونية ، ويتولى ترتيب كل شئون الحفلات الخيرية ، ويقدم
نفسه للموسيقين .



دارت أحاديث كثيرة على الغداء ، فقال لابتيف :
- « هل تصدقون أن أخى فيودور طلع علينا اليوم بمفاجأة جديدة .
انه يقول يجب أن نعلم متى ستم المؤسسة قرنا من عمرها حتى
تقدم طلبا لرفعنا الى طبقة النبلاء . وهو جاد تماما فيما يقول .
ولست أدرى ماذا أفعل . بصراحة لقد بدأت أتوجس خيفة » .
وتحول الحديث الى فيودور ، وكيف أصبح مما يتمشى مع
العادات الحديثة هذه الايام أن يتخذ الانسان موقفا استعراضيا
أو آخر ، وفيودور مثلا ، يحاول أن يقوم بدور التاجر الروسى الفيور
على عمله ، وهو شئ لم يعد له وجود الآن ، ويتحدث بصوت غليظ
مجامل مع مدرس المدرسة الذى يراعه لابتيف الكبير ، حين يحضر
ليتسلم راتبه .

وبعد الغداء انتقلوا الى المكتبة لأنه لم يكن لديهم شئ أفضل
يفعلونه ، وتحدثوا عن الانحلاليين وعن « عذراء أوليانز » ، وألقى
كوستيا مونولوجا طويلا من المسرحية تصور انه محاكاة دقيقة
لبيرمولوفا . وجلسا بعد ذلك ليلعبوا الورق . ولم تذهب الفتاتان

الصفيرتان الى مسكنهما ، بل جلستا متجاورتين فى مقعد وثير ، شاحبتين حزينتين ، تجفلان مع كل صوت عربية تمر أمام المنزل ، على أمل أن يكون أبوهما قد وصل . كانتا بائستين الى أبعد حد ، وبخاصة فى المساء ، وحتى بعد أن تشعل الشموع . كانتا تنزعجان لحديث الكبار على مائدة اللعب ، ووقع أقدام بيوتر ، وقرقعة الاخشاب فى المدفأة . كانتا أتعس من أن ترقبسا السنة النار المشتعلة ، ولم تستطيعا حتى أن تواملا البكاء . كان كل شيء يثير فزعهما . وكان قلباهما مثقلين ، ولم يكن باستطاعتهما أن يفهما كيف يستطيع أى شخص أن يتحدث ويضحك وأمهما ميتة .

سألت يوليا سيرجيفنا كوستيا :

– « ماذا رأيت اليوم بمنظارك المعظم ؟ » .

– اليوم لا شيء ، ولكن بالأمس رايت الرجل الفرنسى يستحم » .
فى الساعة السابعة خرجت يوليا سيرجيفنا وكوستيا للذهاب الى مسرح « مالى » . وبقي لابتيف بالمنزل مع الفتاتين الصفيرتين ، وقال وهو يلقي بنظرة على ساعته :

– « كان المفروض أن يكون أبوكما قد وصل الى هنا . لابد أن القطار تأخر » .

وجلست الفتاتان صامتتين ملتصقتين كل منهما بالأخرى فى المقعد الوثير وكانهما حيوانان ضئيلان يرتعدان من البرد ، فى حين أخذ لابتيف يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ويلقى كل بضع دقائق بنظرة على ساعته وقد نفذ صبره . كان المنزل ساكنا تماما . وحوالى الساعة العاشرة دق جرس الباب . وذهب بيوتر ليفتح . وحين سمعت الصفيرتان صوت أبيهما صرختا ، وطارتا للقائه ، وهما تنتحجان بعنف . كان يرتدى معطفا فاخرا من الفراء ، وكانت لحيته وشاربه ملطخين بالجليد المندوف . وتمتم هامسا للفتاتين :

– « كفى ، كفى . . »

كانت « ساشا » و « ليدا » تضحكان وتبكيان فى وقت واحد ،
وتفطيان يديه الباردتين ، وقبعته ، وفراء معطفه بالقبلات . كان
الاب وسيما ، واهنا ، مترعا بالحب . فربت عليهما وهو شارد
الذهن . ثم توجه الى حجرة المكتب وقال وهو يفرك يديه :

– « لن أبقى طويلا يا أصدقائى . فغدا سأسافر الى بطرسبورج .
فقد وعدنى بوظيفة فى مدينة أخرى » .

وتوقف قبل أن يقول :

– « درسدن » .

كان ايفان جافريليتش بارتسيف يتردد كثيرا على أسرة لابتيف . وكان رجلا متين البنيان ، أسود الشعر ، وجهه لطيف ، وذكى ، وكان يعتبر بشكل عام وسيما ، ولكنه فى الفترة الأخيرة أصبح لدينا ، فأفسد ذلك مظهره ، بالإضافة الى انه كان يسرف فى تقصير شعره ، وفى أيام الجامعة اشتهر باسم « البطل » بسبب تكوينه الرياضى .

لقد تخرج فى قسم اللغويات مع لابتيف وشقيقه ، ثم درس بعد ذلك العلوم الطبيعية ، وقد حصل الآن على درجة جامعية فى الكيمياء ولم يكن يطمح الى الحصول على كرسى جامعى فى الكيمياء ، بل لم يشتغل حتى فى معمل ، ولكنه كان يدرس الطبيعة والتاريخ الطبيعى فى مدرسة تجارية وفى مدرستين ابتدائيتين للبنات . وكان شديد الحماسة لتلاميذه ، والبنات منهم بصفة أخص ، ويصر على أن جيلا رائعا يتكون هذه الأيام . وبالإضافة الى الكيمياء ، قام بدراسة علم الاجتماع وتاريخ روسيا بنفسه ، وكان ينشر مقالات قصيرة فى الصحف والمجلات يوقعها بالحرف الاول من اسمه : « ي » . وكلما تحدث عن علم النبات أو الحيوان بدا وكأنه مؤرخ ، فاذا عالج مشكلة تاريخية خيل لمن يسمعه أنه عالم طبيعى .

وكان « كيش » صديقا آخر مقربا لآسرة لابتيف ، ويعرف أحيانا باسم « التلميذ الخالد » . فقد أمضى ثلاث سنوات فى مدرسة

الطب ، ثم تحول الى الرياضة وقضى عامين فى كل سنة دراسية . وكان أبوه ، وهو صيدلى فى أحد الأقاليم ، يرسل اليه أربعين روبلا كل شهر ، كانت أمه تضيف اليها سرا عشرة أخرى . وكان هذا المبلغ يكفيه ليعيش مطمئنا ، بل ليحصل كذلك على بعض الكماليات مثل معطف بياقة من فراء الجندب البولندى ، وقفاز ، وعطور وصور (كثيرا ما أخذ صوراً لنفسه ليهدىها الى معارفه) . كان رجلا صغيرا أنيقا ، أميل للصلع ، وله سالفان ميلان للحمرة بالقرب من أذنيه ، وكان متواضعا ، كريم الأخلاق . دائما أبدا يؤدي خدمات للناس ، فاما أن يتجول مسرعا بقائمة اشتراكات ما ، واما أن يقف وهو يكاد يتجمد من البرد فى صف أمام شباك تذاكر منذ الصباح الباكر ، ليبتاع تذكرتين فى أحد المسارح لسيدة من معارفه ، أو يسرع ليشتري اكليلاً أو باقة من الزهور لشخص ما . والناس دائما يقولون : « كيش » سيذهب ، « كيش » سيتولى الأمر ، « كيش » سيشتري ذلك ، وكان عادة يهمل فى المهام المطلوبة منه فينهال اللوم عليه من كل جانب بسبب ما تحمله ، وكثيرا ما ينسى الناس أن يدفعوا له ثمن ما اشتراه لهم ، ولكنه لا يشكو أبدا ، ولا يزيد على التنهد . ولا يستعرض أبدا لا سعادته ولا متاعبه ، وكانت أحاديثه غيبة طويلة ، ولا يضحك الناس على نكاته الا لأنها لا تضحك أبدا . قال مرة لبيوتر « بيوتر أنت فخذ » ، فضحك الجميع ، واشتد اعجابه بنفسه لأنه خفيف الظل بهذا القدر ، وفى جنازة أى أستاذ لابد أن تجده فى الطليعة بين حملة المشاعل .

فى المساء يحضر بارتسييف و « كيش » لتناول الشاي . وعادة اذا لم يكن أهل البيت ذاهبين الى المسرح أو الى حفل موسيقى ، فان تناول الشاي يمتد الى موعد العشاء . وذات مساء فى فبراير بينما كانوا جالسين فى حجرة الطعام ، اذ تطرق الحديث الى الفن .

وإذا بكوستيا يقول وهو يحدج بارتسيف بنظرات صارمة :

— « لا تكون للعمل الفنى قيمة ما لم يعالج مشكلة اجتماعية جادة . والعمل الفنى الذى يحتج على العبودية ، أو يعبر عن سخط مؤلفه على فساد الطبقة الراقية ، عمل هام وقيم . أما الروايات والحكايات المليئة بالآهات والتأوهات ، والقصص الى تدور حول وقوع المرأة فى حب الرجل ، ووقوع الرجل فى حب المرأة ، مثل هذه الكتب لا قيمة لها بالمرّة ومن الخير اعدامها » .

وقالت يوليا سيرجيفنا :

— « أنا متفقة معك تماما ياكوستيا ، هذا كاتب يصف مكان لقاء المحبين ، وآخر يكتب عن الخيانة ، وثالث يروى كيف تصالح العاشقان أليس هناك موضوع آخر يكتبون عنه ، هناك كثيرون من المرضى ، والتعساء ، والفقراء المعدمين ، ولا بد أنهم يثورون حين يقرأون مثل هذه الأشياء » .

وكان لابتييف لا يسره أن يسمع زوجته ، وهى المرأة الشابة التى لم تكمل بعد الثانية والعشرين من عمرها ، تتحدث عن الحب بمثل هذا التعقل والبرود . وكان يظن أنه يدرك سبب ذلك .

وقال بارتسيف :

— « ولكن اذا كان الشعر لا يحل هذه المشكلات التى تبدو شديدة الأهمية فى نظركم ، لماذا لا تتحولون عنه الى الأدب العلمى ، فى كتب القانون أوالمالية أو المقالات العلمية ، ولماذا تعالج « روميو وجولييت » مثلا موضوع مجانية التعليم أو تطهير السجون بدلا من الحب ، ما دمت تجد كل ذلك فى المقالات الخاصة ومواد المراجع الموسوعات الخاصة بالموضوع ؟ » .

فقطاعه كوستيا قائلا :

« ها أنتذا تسرف فى المبالغة يا رجل . اننا لا نتحدث عن العمالقة

من أمثال شيكسبير أو جوته ، اننا نتحدث عن مئات الكتاب الموهوبين أو المتوسطين الذين سيصبحون أكثر نفعاً لو أنهم تركوا الحب وشأنه وكرسوا أنفسهم لتقديم المعرفة والأفكار الانسانية للجماهير .

وشرح « كيش » يتحدث وكأن شيئاً يقف في حنجرتة ، محدثاً طينياً أنفياً خفيفاً ، وبدأ يروي قصة قراها أخيراً . وتعهد ان يحكيها ببطء وبتفصيلات كثيرة ، ومرت ثلاث دقائق ، ثم خمس ، ثم عشرة ، وهو ما زال يتكلم ، ولا احد يستطيع ان يفهم شيئاً مما يقوله ، وكلما تقدم في الحديث ازداد تعبير وجهه جموداً وغباء .
وصرخت يوليا بصبر نافذ :

— « أوه (كيش) ، أسرع بانهاء قصتك . انت تعذبنا ! » .

وصاح كوستيا :

— « اسكت يا كيش ، أرجوك ! » .

وضحك الجميع بما فيهم « كيش » نفسه .

ووصل فيودور وقد غطت بشرة وجهه بقع دموية حمراء . وصافح الجميع بسرعة ، ثم أخذ شقيقه ، وذهب الى حجرة المكتب . فقد بدأ في الفترة الأخيرة يتجنب التجمعات الكبيرة .

وقال وهو يريح نفسه في مقعد كبير بعيداً عن الضوء :

— « دع الشباب يمرحون ، أما أنا وأنت فباستطاعتنا ان نتحدث حديثاً هادئاً وحدنا ، هيه يا صديقى القديم ، لم أرك منذ زمن بعيد . متى حضرت الى المخزن آخر مرة ؟ منذ أكثر من أسبوع ، اليس كذلك ؟

— نعم . فليس هناك ما أستطيع عمله . وبالإضافة الى ذلك يجب

ان أعترف بأن العجز يثير أعصابى .

— مؤكداً ، فمن الممكن ان يمضى العمل فى المخزن على خير ما يرام

دون حاجة الينا نحن الاثنان ، ولكن يجب على الانسان ان يقوم بعمل ما . فيجب ان تأكل خبزك من عرق جبينك كما تعلم . والله يحب ان يشقى الانسان فى عمله » .

ودخل بيوتر حاملا كوبا من الشاى فوق صينية . فشربه فيودور بدون سكر ، وطلب كوبة أخرى . كان دائما يشرب كميات كبيرة من الشاى ، تصل أحيانا الى عشرة أكواب فى المساء الواحد . وقال فيودور وهو يقف ويتجه نحو شقيقه :

« اسمع يا الكسى ، لماذا لا ترشح نفسك لمجلس المدينة ؟ بالتدريج ، وشيئا فشيئا سنستطيع أن نجعلك مستشارا ، ثم فيما بعد نائبا للمحافظ . أنت ذكى ومتعلم تعليما حسنا . وفى الوقت المناسب سيلاحظونك ويدعونك الى بطرسبرج ، فكثيرون من قادة المدن والريف قد أصبحوا مشهورين الآن ، ومن يدري فلعلك قبل أن تبلغ الخمسين تكون قد أصبحت مستشارا ملكيا تضع وشاحا على كتفك » .

لم يقل لابتيف شيئا ، فقد كان يعلم أن فيودور يتمنى هذه الأشياء - عضوية المجلس الاستشارى الملكى ، والأوشحة ، وبقية هذه الأشياء كلها - كان يتمناها لنفسه ، ولم يدر ماذا يقول .

جلس الشقيقان صامتين . ثم أخرج فيودور ساعته ، وفتحها ، وحدق فيها بثبات وقتا طويلا وكأنه يريد أن يمسك بحركة العقارب . وبدأ التعبير المرتسم على وجهه غريبا فى نظر لابتيف .

ودعيا الى العشاء ، فذهب لابتيف الى حجرة الطعام ، اما فيودور فقد ظل فى حجرة المكتب . ولم يحتدم الجدل على العشاء ، وبدلا من ذلك اتخذ بارتسييف نفمة المحاضر :

« المساواة مستحيلة بسبب الاختلافات الطبيعية فى الجو ، والنشاط ، والأذواق ، والأعمار . ولكن الانسان المثقف يستطيع ان

يجعل عدم المساواة غير ضار كما فعل مع المستنقعات والدببة . كلنا نعرف ذلك العالم الذى علم قطة ، وكلبا ، وصقرا ، وعصفورا ، ان تأكل من طبق واحد ، والتعليم فيما نرجو ، سيحقق الشئ نفسه مع الآدميين . ان الحياة تتقدم باستمرار ، والثقافة قد حققت تقدما هائلا ، ولا شك أنه سيأتى وقت يصبح فيه الوضع الحالى لعمال المصانع مثلا غير معقول كالعبودية تماما . . حينما كانت بنات الفلاحين يقمن بعمل الكلاب » .

وقال كوستيا وهو يضحك ضحكة صغيرة :

– « سيحتاج الأمر الى وقت طويل قبل أن يتحقق ذلك . وسيحتاج روتشيلد الى وقت طويل قبل أن يعتبر أقبيته المليئة بالذهب غير معقولة ، وفى هذه الاثناء سيكون على العامل الفقير أن يحنى ظهره ويموت من الجوع . لا يا سيدى ، هذا لا يصلح . يجب ألا ننتظر ، يجب أن نقاتل . واذا كانت القطة تأكل فى نفس الطبق كالفأر فهل تعتقد أن هذا معناه انها فهمت الخطأ فى أساليبها ؟ لا شئ من هذا . لقد أجبرت على فعل ذلك » .

وقال لابتيف وهو يحك جبهته :

– « أنا وفيودور غنيان ، وأبونا رأسمالى ، مليونير ، وعلى ذلك يجب أن يقاتلنا الناس ! يقاتلونى – أنا لا أفهم هذا ، حقا أنا غنى ، ولكن ما الذى كسبته من اموالى ، ما الذى كسبته من هذه القوة ؟ هل أنا أسعد منكم ؟ كانت طفولتى عبودية على طول الخط ، ولم تنقذنى نفودى من الجلد . ونفودى لم تساعد « نينا » حينما مرضت وماتت . واذا لم أكن محبوبا فلن أستطيع اجبار أى انسان على أن يحبنى ولو أنفقت ملايين من أجل ذلك » .

وقال « كيش » :

– « ولكنك تستطيع أن تصنع خيرا كثيرا » .

– كلام فارغ ! لقد طلبت منى أمس أن أساعد عالما رياضيا في العثور على وظيفة . صدقنى ، أنا لا أستطيع أن أصنع من أجله أكثر مما تستطيع أنت . نعم ، أستطيع أن أعطية نقودا ، ولكن ليس هذا ما يريد ، لقد طلبت مرة من موسيقى مشهور أن يجد عملا لعازف كمان شديد الفقر ، فقال لى : « لو كنت موسيقيا لما طلبت منى هذا أبدا » . وكذلك أستطيع أنا أن أقول نفس الشيء لك : لو أنك عشت مرة فى مكان رجل غنى لما جئت أبدا تطلب منى العون بمثل هذه الثقة » .

وقالت يوليا سرجيفنا وقد احمر وجهها خجلا :
– « لست أفهم وجه الشبه بالمرّة ، ما صلة الموسيقى المشهور بالأمر ! » .

وتقلص وجهها بالكراهية ، فأغلقت عينيها بسرعة لتخفيها ، ولكن زوجها وكل من على المائدة لم تفتهم ملاحظة تلك النظرة .
وعادت تقول بصوت منخفض :

– « ما دخل الموسيقى المشهور فى الأمر ؟ ان أسهل شيء فى الوجود هو مساعدة رجل فقير » .

وخيم الصمت . وقدم بيوتر الدجاج ، ولكن أحدا لم يمس شيئا من الطعام ، باستثناء بعض المشهيات . وكان لابتيف قد نسى ما قاله بالعمل ، ولم يعد لذلك أهمية على أية حال . فهو يدرك ان الأمر لا يتعلق بكلماته ، فمجرد انه تكلم فحسب كان أمرا بغيضا اليها .

بعد العشاء ذهب الى حجرة المكتب وجلس هناك ، وظلت ضربات قلبه تتلاحق سريعة وهو ينصت بتركيز شديد للحديث الدائر فى حجرة الطعام وينتظر مزيدا من الازلال . لقد عادوا الى المناقشة مرة أخرى . ثم جلس بارتسيف الى المعزف ، وأنشد أغنية عاطفية .

كان شخصا متعدد المواهب : يستطيع ان يغنى ويعزف على البيانو ، بل ويقوم بعدد من الالعب السحرية .

وأعلنت يوليا قائلة :

– « أيها السادة ، لست أدري ما رغباتكم ، ولكنى لا أجد فى نفسى الرغبة فى البقاء فى البيت . فلنذهب الى مكان ما » .

قرروا ان يقوموا بنزهة خارج المدينة ، وأرسلوا « كيش » الى نادى التجار ليستأجر زحافة بثلاثة خيول . لم يدعوا لابتيف لصحبتهم لأنه لم يكن يخرج فى العادة للنزهة خارج المدينة ، فضلا عن أن شقيقه كان معه ، ولكنه اعتبر ذلك دليلا على أنهم يجدونه سخيفا جدا ، وأنه ليس له مكان وسط هذه المجموعة من الشبان المرحين ، وشعر بمرارة للموقف حتى كاد يبكى ، بل لعله كان سعيدا لأنهم يسيئون معاملته ويتجاهلونه ، وأنه ليس أكثر من زوج غبى أحمق ، كيس نقود تعس ، بل انه ليمضى الى أبعد من ذلك ليرى أنه من الأفضل لو أن زوجته كانت تخونه ، ولو هربت مع أقرب أصدقائه هذه الليلة نفسها ، ثم اعترفت فيما بعد وعيناها مليئتان بالكراهية . . كان يفار من الجميع – من أصدقائها من الطلبة ، والممثلين ، والمغنيين ، من يارتسيف ، بل حتى من المارة أيضا . لكم يتمنى لها لو كانت خائنة ، لكى يضبطها مع شخص ما ويتناول السم وينهى هذا الكابوس البشع .

كان فيودور جالسا يرشف شايه بصوت مزعج ، ولكنه فى النهاية نهض هو الآخر لينصرف ، وقال وهو يرتدى معطفه :

– « أخشى أن يكون العجوز قد اقترب من العمى ، فنظره آخذ فى الضعف » .

ارتدى لابتيف معطفه هو الآخر وخرج مع شقيقه ، وصحبه

حتى شارع ستراستونى ، ثم اخذ عربة الى مطعم « اليار » .
وأخذ يسخر من نفسه :

— « هذا ما يسمونه بالسعادة الزوجية ! حب ، حقا » ..

كانت أسنانه تصطك ، من الفيرة او من شىء آخر ، لم يكن يدرى . وحين وصل الى المطعم ، تطلع حوله بين الموائد ، وانصت الى المغنى فى الصالة ، وهو يتساءل عما سيقوله لو تصادف وقابل زوجته وأصدقاءها . كان يعلم مقدما أنه لو قابلهم فلن يزيد على الابتسام باشفاق بل وغباء وسيعلم الجميع لماذا حضر . انتابه دوار من الاضواء الساطعة ، والموسيقى العالية ، ورائحة المساحيق التى تملأ الوجوه ، والطريقة التى حدجته بها النساء . وتوقف عند المدخل محاولا أن يرى ويسمع ما يدور فى المقاصير الخاصة ، وأحس أنه والمغنى وهؤلاء النسوة يلعبون معا احدى اللعب الوضيعة . بعد قليل اتجه بالعربة الى مطعم « ستريلنا » ، ولكن زوجته لم تكن هناك أيضا ، ولكنه وهو عائد فى طريقه الى « اليار » مرة أخرى دهمته عربة صاخبة بثلاثة جياد ، واستطاع أن يسمع علاوة على صيحات السائق المخمور الوحشية صوت يارتسيف العالى قائلا :
— « هو ! هو ! » .



حين وصل أخيرا الى البيت كانت الساعة قد قاربت الرابعة صباحا ، وكانت يوليا قد أوت الى فراشها ، وحين لاحظ أنها ليست نائمة ، ذهب اليها وقال بحدة :

— « أستطيع أن أفهم احتقارك وكراهيتك ، ولكن باستطاعتك مع ذلك أن تحترمينى أمام الغرباء » .

جلست وخفضت قدميها ، وكانت عيناها تبدوان واسعتين داكنتين فى ضوء مصباح الأيقونة . وقالت :

- « أنا آسفة ! » .
- وقف صامتاً ، منفعلاً الى درجة لم يستطع معها أن يقول شيئاً .
وكانت هى الأخرى ترتعد ، وتجلس أمامه شاعرة بالذنب .
قبض على رأسه بيديه وصاح :
- « هذا الألم . لا أستطيع احتمالاه أكثر من ذلك . أعتقد أنى
فى طريقى للجنون » .
وصرخت :
- « هل تعتقد أن الأمر سهل على ؟ الله وحده يعلم كم أعانى .
– أنت زوجتى الآن منذ ستة أشهر ، ومع ذلك فليس فى
قلبك شعاع حب نحوى ، حتى ولا بصيص . لماذا تزوجتنى ؟ » .
ومضى لابتيف يقول فى يأس :
- « لماذا ؟ أى شيطان دفع بك بين ذراعى ؟ ماذا كنت ترجين ؟
ماذا كنت تريدين ؟ » .
- واستمرت تحلق فيه بفرع وكأنها تخشى أن يقتلها ، فى حين
واصل هو حديثه وهو يتنفس بصعوبة :
- « هل تهتمين بى ؟ هل تحبيننى ؟ لا ! ماذا اذن ؟ ماذا ؟
تكلمى ! » .
ثم صرخ قائلاً :
- « انها هذه النقود الملعونة ! هذه النقود الملعونة ! » .
بكت ، ورسمت علامة الصليب على صدرها :
- « أقسم بالله ان الأمر ليس كذلك ! » .
انكمشت للاهانة ، وكانت أول مرة يسمعها تبكى ، وأخذت تعيد
قولها :
- « لا ، أقسم بالله ! أنا لم أفكر فى نقودك ، ولا أريدها ، كل
ما فى الأمر أنى اعتقدت أنى أخطيء حين أرفضك . كنت أخشى

أن أحطم حياتنا ، حياتك وحياتي . وها أنذا الآن أدفع ثمن الخطأ .
ولا أستطيع الاحتمال ! » .

أخذت تنتحب بمرارة ، وأدرك كم تعاني ، ولما لم يعرف ماذا
يقول ركع على ركبتيه أمامها وتمتم قائلاً :

– لا « لا تبكى ، لا تفعلنى ، لقد اهنتك لآنى أحبك بجنون » .

وفجأة اذا به يقبل قدمها ، ويضمها اليه بشوف شديد وهو
يتمتم .

– « كل ما أطلبه هو شعاع من الحب لا أكثر . اكذبى على ،
أرجوك ! اكذبى على ، لا تقولى انه كان خطأ ! » .

ولكنها واصات بكاءها ، ورأى أنها احتملت قبلاته كعقاب لخطئها
لا أكثر . سحبت القدم التى قبلها وثنتها تحتها كالطائر . وفجأة
اذا به يشعر بالحزن من أجلها .

استلقت على السرير وسحبت الأغطية فوق رأسها ، وخلع هو
ملابسه واستلقى الى جوارها . وفى الصباح كان كل منهما مرتبكا
لا يدرى ماذا يقول ، بل وخيل اليه أنها لا تطأ بنفس الثبات على
القدم التى قبلها .

وقبيل الغداء حضر بانوروف ليودعهما . وتملك يوليا حين
مفاجيء لمدينتها . وقالت لنفسها ، ما أجمل أن يفر الانسان من هذه
الحال المحرجة ، والاحساس المستمر باقتراف الخطأ .

وعلى الغداء تقرر أن تسافر مع بانوروف ونقضى اسبوعين أو
ثلاثة مع أبيها .

جلست يوليا سيرجيفنا وبانوروف فى مقصورة وحدهما . وكان بانوروف يرتدى قلنسوة غريبة الشكل مصنوعة من جلد جمل . وقال وهو يتنهد :

- « لا ، لست قانعا بالمرّة بسانت بطرسبورج . ولدى وعود كثيرا جدا ولكن لا شىء محدد . نعم يا عزيزتى . لقد عملت قاضى مصالحات وعضوا دائما فى المحكمة الريفية ثم رئيسا لها ، وفى النهاية مستشارا فى الحكومة المحلية ، لقد خدمت بلادى بجد ، وأعتقد انى جدير بشىء من التقدير . ومع ذلك فما أنت تريننى عاجزا عن الفوز بالنقل الى مدينة اخرى » .

وأغلق عينيه وهز رأسه ، ومضى يقول فى فتور :

- « انهم لا يقدروننى . طبعا ، لست اداريا ممتازا ، ولكننى شريف وذو ضمير ، وهاتان صفتان نادرتان هذه الأيام . أعترف انه من المحتمل انى كنت غير وفى بعض الشىء مع النساء ، ولكنى فى علاقاتى بالحكومة الروسية كنت مهذبا دائما » .

ثم عاد يقول وهو يفتح عينيه :

- « ولكن كفانا حديثا عن هذا . لنتحدث عنك أنت . ما السبب فى هذه الزيارة المفاجئة لوالدك ؟ » .

وأجابت يوليا وهى تتطلع الى قلنسوته :

- « آه ، مجرد سوء تفاهم بسيط مع زوجى » .

– نعم ، انه غريب بعض الشيء . كل افراد أسرة لابتييف هكذا .
ان زوجك ليس بالغ السوء ، ولكن شقيقه فيودور هذا ، انه احمق
بالفعل . »

تنهد بانوروف ثم سأل باهتمام :

– « هل لك عشيق ؟ » .

فنظرت اليه يوليا فى دهشة ثم ضحكت :

« يالله ، ما أغرب ما قلت ! » .

فى حوالى الساعة الحادية عشرة نزلا فى احدى المحطات الكبيرة
وتعشيا معا فى مطعم المحطة . وحين عادا الى مقصورتها خلع
بانوروف معطفه وقلنسوته وجلس الى جوار يوليا ثم بدأ يقول :
– « يجب أن أقول انك جميلة جدا . واغفرى لى هذه المقارنة
الرخيصة ، ولكنك تذكيرنى بخياراة صغيرة هشة حديثة التلميح ،
ما زالت محتفظة بعبير الحقل ، ومع ذلك فهى تحوى بالفعل قليلا من
الملح ونكهة البهارات . لديك كل هبات امرأة شديدة الروعة ،
امرأة فاتنة رشيقة » .

وتنهد ثم قال :

– « لو أننا سافرنا معا منذ خمس سنوات لوجدت من واجبى
السعيد أن انضم الى موكب المعجبين بك ، أما الآن ، وا أسفاه ،
فأنا عليل . » .

وابتسم ابتسامة حزينة ، ولكنها متلطفة مع ذلك ، ثم وضع
ذراعه حول خصرها . شهقت يوليا واحمر وجهها ، وكادت تفقد
وعياها من الفزع :

– « جريجورى نيكولايفتش ، ابتعد عنى ! » .

فسألها برقة :

– « ماذا تخشين يا عزيزتى ؟ ماذا حدث ؟ كل ما فى الأمر أنك لم تتعودى على ذلك بعد » .

كان كلما قاومت امرأة محاولاته اعتبر ذلك ، بمنتهى الثقة ، دلالة على فوزه بها لا أكثر . وعلى ذلك فقد أمسك يوليا من خصرها بقوة ، وقبلها على خدها ، ثم فى شفيتها ، وهو واثق تمام الثقة بأنه يمنحها أقصى سعادة ممكنة . أما وقد تخلصت يوليا من فزعها وارتباكها فقد شرعت تضحك .

قبلها مرة أخرى ، ثم ارتدى قلنسوته المضحكة وهو يقول :

– « هذا كل ما تستطيعين توقعه من رجل عليل . يحكى أنه كان هناك باشا تركى ، رجل عجوز لطيف ، أهده حريما كاملا ، أو ورثه ، لا أذكر أيهما . وحينما كانت زوجاته الصغيرات الجميلات يقفن أمامه صفا ، كان يمر بالصف ويقبل كل واحدة منهن فى دورها وهو يقول : « هاك ، هذا كل ما أستطيع أن أعطيه لك الآن . وهذا ما أقول أنا أيضا » .

بدأ لها كل ذلك شادا وسخيفا ، ولكنها وجدته مسليا مع ذلك . وأحست بالرغبة فى العبث ، فوقفت على المقعد وهى تترنم بصوت خافت ، وأخذت علبة حلوى من فوق الرف ، وقذفته بقطعة من الشكولاتة وهى تقول :

– « امسك ! » .

التقط بانوروف قطعة الشكولاتة ، فقذفته يوليا بقطعة أخرى وهى تضحك بمرح ، ثم بثالثة التقطها جميعا وحشرها فى فمه ، وهو يحقق فيها متوسلا . ولم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير فى أن ثمة شيئا فى وجهه وسلوكه مخنثا وطفوليا الى أبعد حد . وحين عادت الى الجلوس لاهثة الأنفاس وواصلت تأمله باستمتاع ، لمس خدها بأصبعه وقال فى خيبة أمل ساخرة :

– « لماذا ، أيتها الطفلة الشقية ! » .

وقالت وهى تقدم له العلبه :

– « خذ هذا ، لست مفرمة بالحلوى » .

التهم بانوروف الحلوى كلها ، ثم وضع الصندوق الفارغ فى حقيبته فقد كان به ضعف خاص نحو العلب ذات الرسوم .
وقال :

« والآن كفانا هذرا . لقد حان وقت نوم الرجل العليل » .

وأخرج رداءه المنزلى المصنوع من حرير « بخارى » ، ووسادة ، وتمدد وتغطى بالرداء وهمس وهو يتنهد وكأن كل جسده يؤلمه :
– « أسعدت مساء يا حلوتى » .

وبعد بضع دقائق كان شخيره قد ارتفع . ودون أن تشعر يوليا بأقل خجل تمددت هى الأخرى وسرعان ما راحت فى النوم .



فى صباح اليوم التالى حين أخذت يوليا طريقها من المحطة الى بيتها كانت شوارع بلدتها تبدو مهجورة ، الجليد رمادى ، والمنازل ضئيلة ومسطحة بشكل ما . وفى طريقها مرت بموكب جنازى ، وشهدت تابوتا مفتوحا فوق صندوقه تحيط به رايات الكنيسة ، فقالت لنفسها :

– « يقولون ان لقاء جنازة فال حسن » .

ولاحظت على المنزل الذى كانت تسكنه نينا فيودروفنا لافتات كتب عليها « للبيع » .

دخلت يوليا فناء بيتها وقد أسرع خفقات قلبها ، ودقت الجرس . فتحت الباب خادمة جديدة ، فتاة سمينة فى عينيها آثار النوم ، وعلى جسدها سترة من اللباد السميك . وبينما يوليا تصعد درجات السلم التى أصبحت الآن قدرة غير مكنوسة ، تذكرت

انه هنا طلب لابتيف الزواج منها . وفى المر البارد فى الدور العلوى كان مرضى ابيها ينتظرون دورهم ، وقد تكوموا داخل معاطفهم الثقيلة . ولسبب ما أسرعت دقات قلبها وشعرت بفتور فى اطرافها .

كان الطبيب يحتسى الشاى ، وقد أصبح سمينا أكثر من أى وقت مضى ، وأصبح وجهه أحمر كقالب الطوب ، وترك شعره غير ممشط . لقد كانت هى الفرحة الوحيدة فى حياة ذلك الشيخ - وفى اندفاعه عاطفية عانقته بحرارة وقالت انها جاءت لتقيم معه فترة طويلة ، حتى عيد الفصح . وبعد أن غيرت ملابسها جاءت الى حجرة المائدة لتناول الشاى ، ولكنه ظل يذرع الحجره جيئة وذهابا وهو يتمتم « رو - رو - رو » ، علامة على أن شيئا ما لا يعجبه .
ثم ما لبث أن قال :

- « انك تعيشين حياة مرحة فى موسكو ، وأنا شديد السعادة من أجلك . أما بالنسبة لى ، فماذا يمكن أن يحتاج رجل عجوز مثلى ، سرعان ما سأنفق فيرتاح الجميع أكثر . الشيء العجيب أن جسدى قوى بصورة شيطانية ، وما زلت أعيش ! شيء مذهل ! » .

وقال انه حمار شغل عجوز وقوى يمتطيه الجميع ، وانه هو الذى قام بعلاج نينا فيودروفنا قبيل وفاتها ، ورعى طفلتها ، ورتب الجنازة بالاضافة الى ذلك ، وأن ذلك الخليع بانوروف رفض القيام بأى شيء ، بل وأكثر من ذلك اقترض منه مائة روبل ، لم يردها حتى الآن .

وأضاف الطبيب :

- « من الأفضل أن تأخذينى الى موسكو وتضعينى فى مصحة للأمراض العقلية . أنا رجل مجنون ، طفل ساذج لأنى ما زلت او من بالحق والعدل ! » .

ومضى بعد ذلك يلوم زوجها لأنه قصر النظر هكذا ، لا يشتري منازل وقد أصبحت رخيصة .

زايل يوليا احساسها بأنها الفرحة الوحيدة فى حياة هذا الرجل العجوز . وبينما كان يستقبل مرضاه ويقوم بجولاته ، كانت هى تتجول بلا هدف فى كل الحجرات . أحست بشئ من الغربة فى بلدتها وبيتها ، ولم تكن لديها أى رغبة فى الخروج أو زيارة أحد ، وحين فكرت فى صديقات صباها ، وفى حياتها قبل الزواج لم تشعر بأى حزن ولا ندم .

وفى المساء ارتدت أفضل أثوابها وذهبت لحضور الصلاة . ولكن لم يكن فى الكنيسة سوى قوم بسطاء ، ولم يحدث معطفها الرائع المصنوع من الفراء ، ولا قبعتها أى أثر . وبدا لها أن شيئاً ما قد تغير فى الكنيسة وفيها هى نفسها على السواء . لكم كانت تحب الاستماع الى قراءة التراتيل أثناء الصلاة ، والجوقة وهى تردد الأناشيد وبخاصة : « ها أنذا أرفع صوتى » ، ثم تتحرك بعد ذلك ببطء وسط الجمع متجهة الى منتصف الكنيسة حيث يقف القس ، وتستشعر مس الزيت المقدس لجبهتها . أما الآن فهى تتوق الى أن تنتهى الصلوات ، وبينما هى تخرج من الكنيسة تمنى فقط لو أن المتسولين لم يسألوها احسانا - فسيكون من المزعج أن تتوقف لتبحث فى جيوبها ، فضلا عن أنها لم تعد تحمل الآن عملة نحاسية فى جيوبها ، بل روبلات فقط .

فى تلك الليلة أوت الى فراشها مبكرة ، ولكنها ظلت مستيقظة مدة طويلة . وحينما نامت حلمت ببعض الصور وبموكب الجنازة الذى شاهده فى الصباح ، وحلمت أنهم أدخلوا النعش المفتوح الى الفناء ، وظلوا يُورجحونه فترة طويلة ، ثم فجأة اذا به يصطدم بالباب . استيقظت من نومها وقفزت من الفراش فرعة . وأسفل

كان شخص ما يطرق الباب ، وكان السلك الممتد من جرس الباب
يحتك بالحائط ، ولكن الجرس لا يرن .
وسمعت الطبيب يسعل والخادمة تهبط السلم ثم تعود .
وسمعت طرقة على بابها وصوت الخادمة يقول :
- « سيدتى ، سيدتى ! » .
وسألت يوليا :
- « ماذا حدث ؟ » .
- « برقية لك ! » .
أخذت يوليا شمعة وخرجت الى الممر . كان الطبيب يقف خلف
الخادمة وقد ألقى بمعطف فوق قميص نومه ، وكان هو الآخر ممسكا
بشمعة . وقال وهو يتشاءب :
- « ان الجرس تالف ، كان يجب أن أصلحه من زمن بعيد » .
فتحت يوليا البرقية وقرأت :
« كنا نشرت في صحتك » .
« يارتسييف ، كوتشيفوا » .
فقالت :
- « يا لهم من حمقى ! » .
وانفجرت ضاحكة . وشعرت فجأة بخفة فى قلبها ومرح .
وحين عادت الى حجرتها اغتسلت ببطء وارادت ملابسها ،
وأمضت بقية الليل تحزم ثيابها .
وظهر اليوم التالى سافرت الى موسكو .

ذات يوم اثناء اسبوع عيد الفصح ، ذهبت أسرة لابتيق لزيارة معرض تصوير فى مدرسة الفنون . وكالعادة المتبعة فى موسكو ذهبت الأسرة كلها بما فيها الطفلتان ومربيتهما وكوستيا .

وكان لابتيق يعرف أسماء جميع الفنانين المشهورين ولم يفته معرض أبدا . وأحيانا كان يرسم بعض المناظر الطبيعية بنفسه أثناء عطلاته الصيفية فى الريف ، وكان يعتقد أنه يتمتع بقدر كبير من الذوق الفنى ، وأنه لو درس الفن لكان من الممكن أن يصبح فنانا مجيدا . وحين يسافر الى الخارج كان يمر بحوانيت التحف ، ويفحص الأشياء بحركات الخبير ، ويعبر عن رأيه ، ثم يشتري فى النهاية شيئا ، يطلب فيه صاحب الحانوت أى ثمن يتخيله ، فيدفعه لابتيق ، ويظل الشيء المشتري بعد ذلك ملقى بلفافته فى صندوق العربة حتى يختفى ولا يعلم أحد أين ذهب . أو قد يذهب الى حانوت لبعض الحفارين ويدرس بعناية المطبوعات أو قطع النحاس المحفور ، ويعلق على دقة الصنع ، ثم يشتري اطارا رخيصا أو صندوقا من الورق لا نفع فيه - وكل الصور فى بيته من الحجم الكبير ولكنها رديئة فى الأغلب ، وما لديه من لوحات جيدة معلقة باهمال . وكثيرا ما دفع مبالغ طائلة فى لوحات ثبت فيما بعد انها نسخ مشوهة . أما ما يستلفت النظر حقا ، فهو أنه بالرغم من حياته الشديد فى معظم الأمور ، يصبح فى معارض الفن جريئا وواقفا بنفسه بصورة غير عادية .

تفحصت يوليا سيرجيفنا اللوحات مثلما فعل زوجها ، من خلال منظار الأوبرا أو قبضة يدها المضمومة ، وأبدت إعجابها لأن الناس فى الصورة يبدو وكأنهم أحياء ، وان الأشجار تبدو وكأنها أشجار حقيقية . ولكن معظم الصور كانت تبدو متشابهة فى نظرها ، وهى تعتقد ان الهدف الوحيد للفن هو أن يجعل الناس والأشياء فى الصورة تبدو حقيقية حين تفلق احدى عينيك وتنظر اليهم من خلال قبضة يدك المضمومة .

وأخبرها زوجها قائلا :

« هذه غابة شيشكين ، انه لا يشير الى أى شىء آخر . انظرى الى هذاالجليد ! ان الجليد لا يكون أبدا بنفسجيا هكذا ... وهذا الغلام ذراعه اليسرى أقصر من ذراعه اليمنى » .

وفى النهاية حينما كانوا جميعا قد أنهكوا تماما ، ولابتيف قد ذهب للبحث عن كوستيا حتى يستطيعوا العودة الى البيت ، توقفت يوليا أمام منظر طبيعى صغير ونظرت اليه بلا اكتراث . كان فيه نهر صغير فوقه جسر خشبى ، والممر فى الضفة الأخرى يتلاشى وسط مروج داكنة تحف بها غابات الى اليمين . وكان هناك أيضا معسكر نار من الواضح أنه من صنع بعض الرعاة ، وكان الدخان لا يزال يتصاعد الى السماء عند الأفق .

وتصورت يوليا نفسها تسير على الجسر ، ثم فى ذلك الممر وتتقدم فى ذلك الشفق الهادىء حيث الطيور البرية تنعق فى نعاس ، وتتهوج نار على البعد . وبدت لها تلك السحب ، وكذلك هذه الغابة والمروج أيضا ، بدت لها مألوفة بشكل غريب ، لقد رأتها مرات كثيرة من قبل منذ زمن بعيد ، وسيطرت عليها وحشة غريبة ، وأرادت أن تسير فى ذلك الممر وتبتعد متجهة نحو الغروب وذلك الشريط الغامض من السماء .

وقالت وقد أدهشها اكتشافها أنها فهمت اللوحة :
- « يا لها من صورة رائعة . انظر يا الكسى ! الا تستطيع
الاحساس بالهدوء الذى يغلب عليها ؟ » .
حاولت أن تشرح لماذا أعجبها المنظر الطبيعى ، ولكن لا زوجها
ولا كوستيا استطاعا أن يفهماها . ظلت تحديق فى المنظر الطبيعى
بابتسامة حزينة ، وقد أحست بالضيق ، لأنه لا احد سواها وجد
فيه شيئاً يستحق الاهتمام . وعادت تجوب الصالات تنظر الى
اللوحات مرة أخرى ولم تعد تراها متشابهة هذه المرة . وحين عادت
الى البيت جذبت انتباهها لأول مرة اللوحة الكبيرة المعلقة فوق
المعزف فى حجرة الاستقبال . فقالت فى تحول مفاجئ :
- « لماذا يرغب الناس فى امتلاك مثل هذه اللوحات ! » .

بعد ذلك أصبحت الأطر المزخرفة ، والمرايا الإيطالية ذات الرسوم
النباتية ، وبقية اللوحات المشابهة للوحة المعلقة فوق المعزف ، كل
ذلك فضلا عن مناقشات زوجها وكوستيا حول الفن ، أصبحت
تملؤها بالاشمزاز والضيق ، بل والكراهية أحيانا ..



مضت الحياة بيوليا رتيبة يوما بعد آخر دون شىء تتطلع اليه .
وانتهى الموسم المسرحى ومال الجو الى الدفاء . ومرت فترة طويلة
رائعة الجو .

ذات صباح ذهب أفراد أسرة لابتيف الى محكمة الحى ليسمعوا
كوستيا يترافع دفاعا عن جندى محال الى الاستيداع اتهم بالاقتحام
والسرقة . وقد غادروا المنزل متأخرين بعض الشىء ، وحين وصلوا
الى المحكمة كان الشهود يستجوبون . كان هناك عدد كبير من
الشهود ، من الفسالات ، وقد شهدت بأن المتهم كثيرا ما زار
معلمتهن صاحبة المفسل . وفى الليلة السابقة ليوم الصليب المقدس

ظهر المتهم فى ساعة متأخرة من الليل بعد أن شرب كمية كبيرة من الخمر ، وطلب نقودا ليشرّب مزيدا من الخمر ولكن طلبه رفض . وبعد ما يقرب من ساعة عاد حاملا جعة وكهكا مملحا للبنات ، وقضوا جميعا الليلة معا يشربون ويفنون . وفى الصباح اكتشفن ان باب الطابق العلوى قد كسر وأن هناك ثلاثة قمصان رجالي وفتاننا وملأتين قد سرقت من على حبل الملابس . وبابتسامة ساخرة سأل كوستيا كلا من الشاهدات على حدة اذا كانت قد شربت شيئا من الجعة التى أحضرها المتهم ليلة الصليب المقدس . وكان من الواضح أنه يحاول أن يثبت ان الفضالات هى اللأى سرقتن بالملابس بأنفسهن ، ثم ألقى مرافعته دون أقل تعبير عن الانفعال ، وقد ثبت عينيه بصرامة على هيئة المحلفين طوال الوقت .

وشرح كوستيا الفرق بين السرقة بالاكراه وبين السرقة العادية . تحدث باهتمام وباستفاضة كبيرة ، مستعرضا موهبة ممتازة فى المناقشة بهيئة جادة فيما أصبح مسلما به منذ زمن بعيد . ومع ذلك فقد كان من الصعب أن تفهم فيم كل ذلك . وكانت النتيجة الوحيدة التى قد يخرج بها عضو المحلفين من خطبته أنه قد حدث اكراه ولم تحدث سرقة ، ما دام الفسيل المسروق قد ذهب فى شراء الجعة التى شربتها الفضالات ، وأنه لو حدثت سرقة ، فانها تكون عندئذ بلا اكراه . ولكن من الواضح ان كل ذلك كما ينبغى أن يكون ، لأن كلا من المحلفين والجمهور بدوا شديداً التأثير بخطبته ، وكان ذلك نجاحا كبيرا . وحينما عادت المحكمة الى الانعقاد وأعلن الحكم بالبراءة ، هزت يوليا رأسها لكوستيا ثم صافحته بحرارة بعد ذلك .



وفى مايو رحلت أسرة لابتيف الى منزلها الريفى فى سوكولينكى . حينذاك كانت يوليا قد أصبحت حاملا .

بعد مرور أكثر من عام ، كانت يوليا ويارتسييف جالسين على العشب فى سوكونينكى غير بعيد من خط سكة حديد ياروسلاف . وكان كوستيا ممددا على بعد أقدام قليلة منهما ، وقد أراح رأسه على ذراعيه وأخذ يحدق فى السماء . كانوا جميعا قد أرهقهم المشى ، وهم ينتظرون الآن مرور قطار الساعة السادسة قبل أن يعودوا الى البيت لتناول الشاى .

وكانت يوليا تقول :

— « الأمهات يعتقدن دائما أن أطفالهن نابهون ، وهذا طبيعى تماما . انهن يستطعن الوقوف أمام مهد طفلهن بالساعات يحدقن فى أذنيه الصغيرتين ، وعينييه وأنفه . والمسكينه منهن تعتقدن ان تقبيل ابنها يهب كل شخص أعظم سعادة فى الوجوه ، ولا تستطيع أن تتحدث عن شىء آخر غير طفلها . أنا أعرف هذا الضعف فى الأمهات وأحاول أن أراقب نفسى ، ولكن صغيرتى أولجا نابهة حقا . لىسا وجه صغير شديد الذكاء ، ما أروعها حين ترضع ! وما أجملها حين تضحك ان عمرها ثمانية أشهر فقط ومع ذلك فلم أر حتى الآن طفلا فى الثالثة له مثل عينيها الذكيتين » .

وسألها يارتسييف :

— « بالمناسبة خبرينى ، من تحبين أكثر ، زوجك أو طفلتك ؟ » .

— وهزت يوليا كتفيها بلا مبالة وقالت :

– « لا أعلم . لم يحدث فى يوم من الأيام انى أحببت زوجى كثيرا .
الواقع ان اولجا هى حبى الأول . انت تعلم انى لم أكن أحب الكسى
حين تزوجته . كنت شديدة الحمق وقتئذ ، وقاسيت الكثير لأنى
اعتقدت أنى دمرت حياته وحياتى ، ولكنى الآن فهمت أن الحب
ليس مهما الى هذا الحد ، انه عبث كله .

– ولكن ما الذي يربطك بزوجك اذا كنت لا تحيينه ؟ لماذا تعيشين
معه ؟

– لا أعلم .. العادة ، على ما اعتقد . انى أحترمه ، وافتقده
حين يفيب كثيرا ولكن هذا ليس الحب . انه رجل ذكى ، وشريف ،
وفى هذا ما يكفى كى اشعر بالسعادة . وهو طيب جدا ،
وكريم .. » .

وتلعثمت الكلمات فى فم كوستيا وهو ينهض من رقدته بكسل :
– « الكسى ذكى ، الكسى طيب ، ولكن يا فتاتى العزيزة يجب أن
يبتلع الانسان ثلاثة أرطال من الملح معه حتى يكتشف الى أى حد
هو ذكى وطيب ومهم . وبالإضافة الى ذلك ، ما فائدة طبيته وذكائه ؟
انه يعطيك نقودا كما تريد ، هذا يستطيعه ، ولكن حينما يتطلب
الأمر شيئا من الحزم ، حين يتعلق الأمر بالتعامل مع المجرمين
والأوباش اذا به يدخل قوقعته . ان الرجال من أمثال زوجك الكسى
قوم رائعون ، ولكنهم لا يساوون شيئا كمقاتلين . وهم بصفة عامة
ليسوا ممتازين فى أى شىء » .

وأخيرا ظهر القطار .. واندفع بخار قرمزى من المدخنة انتشر
فوق الغابات ، وبدت نافذتان فى العربة الأخيرة شديدا التوهج
تحت أشعة الشمس بحيث تفتشى العين من النظر اليهما .

وقالت يوليا وهى تنهض :

– « موعده الشاى ! » .

كان جسمها قد امتلأ فى الفترة الأخيرة ، وأصبحت تسير فى

شيء من التراخي الخفيف شأن المرأة الناضجة .

وقال يارتسيف وهو يسير خلفها :

— « نفس الشيء ، الحياة سيئة دون حب . اننا نتحدث كثيرا جدا ونقرأ كثيرا جدا عن الحب ، ولكن ما اقل ما نحب نحن أنفسنا ، وهذا أمر سييء » .

وقالت يوليا :

— « كل هذا كلام فارغ . والسعادة ليست هكذا » .

تناولوا الشاي فى الحديقة الصغيرة حيث نمت ازهار الخزامى والطباق والخيرى ، وحيث بدأ يزهر النرجس البرى . واستطاع كل من يارتسيف وكوتشيفوا أن يريا من وجه يوليا سرجيفنا أنها فى حالة من الرضا السعيد ، وأنها لا تتطلع الى شيء أكثر مما لديها ، وأحسا أيضا وهما ينظران اليها بالوثام مع العالم . كل ما قيل كان ذكيا وفى صميم الموضوع . وكانت أشجار الصنوبر رائعة ، وعبير الراتينج أقوى من المعتاد ، وكانت القشدة ممتازة ، وساشا فتاة حلوة ..

بعد الشاي دخلوا الى المنزل ، وأنشد يارتسيف بعض أغاني الحب ، مصاحبا نفسه بالعزف على البيانو ، وبين الحين والآخر كانت يوليا تقوم وتخرج من الجحرة على أطراف أصابعها لترى الطفلة و « ليدا » ، والأخيرة كانت طريحة الفراش مصابة بالحمى ولم تأكل شيئا منذ يومين ..

غنى يارتسيف :

— « يا حبى ، يا حبى الغالى » .

ثم أعلن وهو يهز رأسه :

— « لا يا اصدقائى ، قولوا ما تشاءون ، ولكنى لا افهم لماذا تعترضون على الحب ! لو انى لم اكن مشغولا خمس عشرة ساعة

كل يوم لكان من المؤكد أن أحب » .
وقدم العشاء فى الشرفة . وكانت ليلة دافئة هادئة ، ولكن
يوليا تدهرت بوشاح صوفى واشتكت من الرطوبة . وحين حل
الظلام ، بدأت تشعر بالقلق ، وظلت ترتجف ، وتحث ضيوفها على
البقاء مدة أخرى . أمرت الخدم باحضار نبيذ ، وبعد العشاء كونيالك .
ولم تكن تريد أن تترك وحدها مع الخدم والأطفال وقالت :

– « أنا وجيرانى نستعد لتقديم مسرحية للأطفال هنا فى
الريف لدينا كل ما نحتاج اليه – مسرح ، وممثلون ، كل ما ينقصنا
هو المسرحية . وقد تلقينا حوالى عشر أو عشرين مسرحية من كل
نوع ، ولكن ليس من بينها واحدة مناسبة » .

ثم التفتت الى يارتسيف :

– « أنت تحب المسرح ، وتعرف التاريخ معرفة جيدة ، فهل
تستطيع أن تكتب لنا مسرحية تاريخية ؟
– لا مانع لدى .. » .

أتى الضيفان على الكونيالك كله ، واستعدا للانصراف . وكانت
الساعة قد جاوزت العاشرة ، وهى ساعة متأخرة بالنسبة للريف .
وقالت يوليا وهى توصلهما حتى البوابة :

– « ما أحلك الظلام ، أنا لا أستطيع رؤية شئ ! لست أدرى
كيف ستهتديان الى طريق العودة . يالله ، ان الجو بارد ! » .
شدت وشاحها أكثر حول جسدها ، ثم عادت الى البيت ، وأتبعتها
صوتها قائلة :

– « لابد أن الكسى يلعب الورق فى مكان ما ، طابت ليلتكما ! » .
بعد الحجرات ساطعة الضوء ، لم يستطع يارتسيف وكوستيا أن
يريا شيئاً ، فأخذا يتحسسان طريقهما عشوائيا الى قضيب السكة
الحديد واجتازاه .

وانفجر كوستيا قائلا وهو يتوقف ليحدق فى السماء :
- « لا أستطيع أن أرى أى شىء ، ولكن أنظر الى النجوم ،
انها أشبه بقطع جديدة لامعة من فئة الخمسة عشر كوبك ! » .
وجاء صوت يارتسيف من وسط الحلقة قائلا :
- « ماذا ؟ »

- أقول ان الظلام حالك . أين أنت ؟ » .
تقدم يارتسيف وهو يصفر ، وجذبه من ذراعه . وفجأة زار
كوستيا بأعلى صوته :

- « هاى ، أنتم أيها القوم الطيبون ، لقد قبضوا على أحد
الاشتراكيين ! » .

كان دائما شديد الضجيج كلما احتسى شيئا من الخمر ، فيصيح
كثيرا ، ويفتعل المشاجرات مع رجال البوليس وسائقى العربات ،
ويغنى ويهدر بالضحك . وعاد يزار :

- « الطبيعة ، فليأخذك الشيطان ! » .
واعترض يارتسيف :

- « وماذا بعد ذلك . كف عن هذا بالله عليك » .

ومالبت عيونهما أن الفت الظلمة ، وبدأت أشباح أشجار الصنوبر
وأعمدة التلغراف تتميز أمامهما . . وبين الحين والآخر كانت قاطرة
تصفر فى أفنية محطة موسكو ، وأخذ التلغراف يطن بوضوح .
ولكن صوتا واحدا لم ينبعث من الغابات ، وكان ثمة شىء معتز
قوى ومبهم يحيط بذلك الصمت ، وبدت أطراف الصنوبر وكأنها
تمس أطراف السماء . وعثر الصديقان على طريقهما وسارا فيه .
كان الظلام هنا شاملا ، ولولا شريط السماء الرفيع المرصع بالنجوم
وملمس الأرض الرطبة تحت أقدامهما لما استطاعا أن يعرفا أنها
فى الطريق الصحيح . سارا جنبا الى جنب دون حديث ، وخيل

اليهما أن ثمة شخصا يتجه نحوهما فى الظلام . وبدأ تأثير الخمر يتلاشى . وخطر ليارتسيف ان هذه الغابات ربما كانت مسكونة بأرواح قياصرة موسكو ، وفرسان وبطاركة ، وأراد أن يخبر كوستيا بذلك ولكنه عدل .

وحيثما وصلا الى مداخل المدينة كانت أول اشعاعات النهار قد مست السماء . مرا أمام حوانيت الأطر الرخيصة ، والحانات ، وساحات الأخشاب ، وتحت جسر السكة الحديد حيث لفحتهما نسمة رطبة معطرة برائحة أزهار الليمون الجميلة ، ثم خرجا الى شارع طويل عريض مهجور تماما ومظلم .. وحيثما وصلا الى « رديوند » كان النهار قد أشرق فعلا ..

وبينما هما يمران أمام دير الكسيفسكى قال يارتسيف :

— « ما زال أمام موسكو الكثير من الآلام ! » .

— ما الذى جعلك تفكر فى ذلك ؟

— آه ، لا أدرى ، أنا أحب موسكو » .

لقد ولد كل من يارتسيف وكوستيا فى موسكو ، وأحبها وكانا لسبب ما متحيزين ضد المدن الأخرى . كانا مقتنعين بأن موسكو مدينة عظيمة ، وبأن روسيا بلاد عظيمة . وفى القرم ، أو القوقاز ، أو خارج البلاد ، كانا يشعران بالملل والضيق ، وكانا يعتقدان انه ليس هناك جو أصح ولا أمتع من جو موسكو المقبض . فمثل هذه الأيام ، حين يطرق المطر البارد زجاج النوافذ ويهبط الفسق مبكرا ، وتصبح جدران البيوت والكنائس بنية داكنة ، ولا تعرف ماذا ترتدى حين تريد الخروج .. مثل هذه الايام كانت تبدو سارة فى نظرهما .

وأخيرا وصلا الى المحطة واستأجروا عربة ، وقال يارتسيف :

— « ماذا لو كتبت فعلا مسرحية تاريخية ولكن بدون آل ليابونوف

ولا آل جودونوف ، أتعرف شيئاً جديداً من فترة حكم ياروسلاف أو مونوماخ . فانا أزدري كل المسرحيات التاريخية الروسية باستثناء مونولوج « بيمين » . ان المصادر التاريخية ، وحتى كتب التاريخ الروسية تجعل كل شيء فى روسيا يبدو موهوبا وساحرا بصورة غير عادية ، ولكنى حين أرى مسرحية تاريخية أجد الحياة الروسية تصدمنى بأنها سخيصة وغير صحيحة ولا أثر فيها للأصالة » .

افترق الصديقان بالقرب من دميتروفكا واتجه يارتسييف بالعربة انى بيته فى شارع نيكيستسكايا . جلس ناعسا فى مقعده يتأرجح من جانب الى آخر ويفكر فى المسرحية التى سيكتبها . وفجأة خيل اليه انه سمع ضجة مخيصة ، قرقعة درع وصيحات بلغة غريبة قد تكون لغة « كالموك » ، ورأى قرية يلفها اللهب ، والغابات المحيطة بها مغطاة بجليد أبيض أشد اكفهرارا من النار ، رآها واضحة حتى أن كل شجرة من أشجار الشربين الصغيرة كانت تقف وحدها منفصلة عن غيرها . واجتاح القرية رجال متوحشون على ظهور الخيول ورجالين ، وكان الرجال والخيول مكفهرين كالسما .

وقال يارتسييف لنفسه :

– « البولوفتسى » .

كان أحدهم عجوزا ذا وجه دموى مخيف ، وجسد مغطى بالحروق ، وكان يربط الى سرج حصانه فتاة شابة ذات وجه روسى أبيض . وكان العجوز يصرخ بوحشية والفتاة تحدق أمامها بعيون حزينة متأملة . ثم هز يارتسييف نفسه واستيقظ وترنم بأغنيته :

– « يا حبى ، يا حبى العزيز » .

ونقد سائق العربة ثم صار صاعدا الى شقته ، وان لم يستطع مع ذلك أن يبعد الحلم عن رأسه ، فرأى اللهب ينتشر فوق القرية ، والغابة تدخن وأشجارها تفرقع ، وثمة خنزير وحشى جن من الفرع

فاندفع الى القرية . . والفتاة المربوطة الى سرج الفرس ، تحديق الى الامام .

حين دخل حجرته كان النهار قد اضاء تماما . وكانت هناك شمعتان تحترقان على المائدة بجوار نوتة موسيقية مفتوحة . وكانت راسودينا مرتدية ثوبها الأسود وقد استفرقت فى النوم فوق الأريكة وفى يدها جريدة . كان من الواضح انها ظلت تعزف مدة طويلة وهى تنتظره ، ثم راحت فى النوم ، وقال لنفسه :
- « هذه المخلوقة المسكينة ، لا بد انها مرهقة » .

أخذ الجريدة من يدها برفق ، وغطاها بملاءة ، ثم نفخ الشمعتين وذهب الى حجرة نومه . ودخل فى سريره وهو لا يزال يفكر فى المسرحية التاريخية ، وظلت أغنية « يا حبيبى ، يا حبيبى العزيز » تتردد فى أذنيه .



بعد يومين مر عليه لابتيف بضع دقائق ، ليخبره أن « ليدا » كانت مريضة بالدفتريا ، وأن يوليا سرجيفنا والطفلة الصغيرة قد أصيبتا بالعدوى منها ، وبعد خمسة أيام أخرى جاءت الأخبار بأن « ليدا » ويوليا تتماثلان للشفاء ، ولكن الطفلة ماتت ، وأن أسرة لابتيف أسرعت بالعودة الى المدينة .

لم يعد لابتييف الآن يحتمل البقاء فى المنزل أى فترة من الوقت . وكثيرا ما انسحبت زوجته الى الجانب الآخر من البيت بدعوى أن تعطى درسا للفتاتين ، ولكنه كان يعلم أنها تذهب الى هناك لتبكى فى حجرة كوستيا . وفى اليوم التاسع ، واليوم العشرين ، واليوم الأربعين بعد وفاة الطفلة كان عليهم أن يذهبوا الى مقابر الكسيفيسكى ليؤدوا صلوات الذكرى ، وتلت ذلك بالنسبة للابتييف أيام طويلة من الحداد والتفكير فى لا شىء سوى الطفلة المسكينة ، والتفوه بكل أنواع العبارات المألوفة لمواساة زوجته . وأصبح الآن لا يزور المخزن الا نادرا ، وتفرغ للأعمال الانسانية مخترعا مختلف أنواع المشاغل لنفسه ، ومرحبا بأى عذر ليقضى يوما بطوله فى العربة يودى بعض الأمور التافهة . وهو الآن ينوى السفر الى الخارج ليدرس تنظيم الفنادق هناك ، وقد سيطرت عليه الفكرة تماما فى الوقت الحاضر .

وذات يوم من أيام الخريف ، ذهبت يوليا الى الجانب الآخر من المنزل لتبكى ، وكان لابتييف ممددا على الأريكة فى حجرة مكتبه لا يدرى الى أين يذهب ، حين دخل « بيوتر » ليعلن مقدم « راسودينا » . قفز لابتييف فى سعادة وأسرع لمقابلة الزائرة غير المتوقعة . لم يكن يفكر أبدا هذه الايام فى عشيقته السابقة . ووجدها تماما كما تركها فى تلك الليلة الأخيرة .

صاح وهو يمد يديه نحوها :
« بوليننا ! مرت قرون منذ تقابلنا آخر مرة ! لا تستطيعين تصور
مدى سعادتي برؤيتك ! تفضلى ! » .

هزت راسودينا يده وهى تحييه ، ثم دخلت الى حجرة المكتب
دون أن تخلع قبعتها ولا معطفها ، وجلست ، ثم قالت :
- « لن أعطك أكثر من دقائق قليلة ، فليس لدى وقت للثرثرة
معك . أرجو أن تتكرم بالجلوس والاستماع الى ما سأقوله . وسواء
كنت سعيدا لرؤيتى أو لم تكن فهذه مسألة لا أهمية لها بالمره فى
نظرى ما دمت لا أعلق أى أهمية على الأفضال التى يتكرم بها جنس
الذكور . لقد جئت اليك فقط لأنى ذهبت بالفعل الى خمسة أماكن
أخرى ، ورفض طلبى فى كل مكان ، والمسألة عاجلة ، استمع
الى . . » .

وواصلت حديثها وهى تنظر اليه فى عينيه مباشرة :
- « هناك خمسة طلاب من معارفى ، قد يكونون حمقى ومبذرين ،
ولكنهم فقراء بلا جدال ، وقد عجزوا عن دفع رسوم تعليمهم ، وهم
الآن على وشك أن يفصلوا . وثروتك تسمح بأن يعتمد عليك فى
أن تذهب الى الجامعة وتدفع لهم .

- بكل سرور يا بوليننا .

- « هاك أسماؤهم » .

قالت راسودينا ذلك ، وقدمت له قصاصة من الورق :
- « اذهب فى الحال ، وتستطيع أن تستمتع بسعادتك المنزلية
فيما بعد » .

فى تلك اللحظة سمعا حفيفا خلف الباب المؤدى الى حجرة
الاستقبال - لعله كلب يهرش . فاحمر وجه راسودينا وقفزت واقفة
وهى تقول :

– « زوجتك تسترق السمع . يا للوضاعة ! » .
أحس لابتيف بلذعة ألم لهذه الإهانة الموجهة لبوليا ، فقال :
– « انها ليست هنا ، بل هي فى الجانب الآخر من البيت .
وأرجوك لا تتكلمى عنها بهذه الطريقة . لقد ماتت طفلتنا أخيرا وهى
فى غاية الارتباك » .

وقالت راسودينا بلهجة لاذعة وهى تعود الى مقعدها :
– « تستطيع أن تواسيها ، فسوف ترزق بعشرة أطفال آخرين .
فلا شك ان الانسان لا يحتاج الى شىء من الذكاء لينجب الأطفال » .
تذكر لابتيف أنه سمع شيئا كهذا مرات عديدة منذ زمن بعيد
وجرفته للحظة ذكريات الأيام الماضية الحلوة ، أيام العزوبية
الحرّة حين كان يحس أنه شاب وأنه ليس هناك شىء لا يستطيع
عمله ، وحينما لم يكن هناك حب لزوجته ، ولا ذكريات عن طفلته .
وقال وهو يتمطى :
– « هيا بنا معا » .



انتظرت راسودينا خارج الجامعة ، فى حين ذهب هو الى
الإدارة .

وحين عاد سأل وهو يسلمها الايصالات الخمسة :
– « الى أين أنت ذاهبة الآن !
– الى بيت يارتسييف ..
– سأذهب معك ..
– « أنه يعمل ، وسوف تزعجه لا أكثر .. » .
فقال وهو ينظر اليها متوسلا :
– « لا ، لن أفعل ، أعدك بذلك ! » .
كانت ترتدى قبعة سوداء يحيط بها اطار من الحرير وكأنها فى

حداد ، وسترة قصيرة جدا وباهتة ذات جيوب واسعة . وبدأ أنفها أطول منه فى أى وقت آخر ، وكان وجهها خاليا من كل لون بالرغم من الصقيع .

وجد لابتيف متعة فى السير خلفها بوداعة ، مطيعا لها منصتا لتذمراتها . واصل مسيره وهو يعجب من القوة الداخلية لهذه المرأة ، فهى بالرغم من أنها ليست جميلة ، وبالرغم من ذبولها واضطرابها ، وبالرغم من ملابسها غير المعقولة ، وشعرها المشعث ، ومظهرها الفظ ، فلها مع ذلك سحر خاص .

دخلا مسكن يارتسييف من الباب الخلفى المؤدى الى المطبخ حيث قابتلها الطاهية ، وهى امرأة عجوز ضئيلة الحجم نظيفة المظهر ذات خصلات رمادية ، بدأ عليها الانزعاج الشديد ، وان قالت بابتسامه لزوجة جعلت وجهها الصغير يبدو كأنه فطيرة :

— « تفضلا من هنا » .

لم يكن يارتسييف فى البيت . وجلست رأسودينا أمام المعزف وبدأت سلسلة لا تنتهى من التمرينات الجافة الشاقة ، بعد أن أمرت لابتيف بالألا يعطلها . ولم يحاول أن يكلمها ، بل جلس فى ركن يتصفح جريدة « الهيرالد الأوروية » . وبعد أن تدربت ساعتين — وهما حصتها اليومية — تناولت وجبة سريعة فى المطبخ ثم خرجت لاعطاء دروسها .

وقرأ لابتيف تكملة احدى الروايات ، ثم جلس وقتا طويلا لا يقرأ ، ولا يشعر بالملل ، بل كان سعيدا لأن الوقت قد أصبح متأخرا بالفعل للعودة الى بيته للغداء .

سمع صوت يارتسييف العالى فى الردهة :

— « هو ! هو ! هو ! » .

ثم دخل وقد بدت عليه معالم الصحة الجيدة والنشاط ، كان

احمر الخدين يرتدى سترة فراك جديدة ذات ازرار لامعة ، وقال :
- « هو ! هو ! هو » .

تناول الصديقان غداءهما معا . وبعد الغداء تمدد لابتيف على
الاريكة فى حين جلس يارتسييف بجواره وأشعل سيجارة . وكان
الفسق قد حل . فقال لابتيف :

- « لابد انى تقدمت فى السن كثيرا ، فمنذ توفيت شقيقتى
نيننا اجدنى كثير التفكير فى الموت » .

تحدثنا عن الموت ، وعن خلود الروح ، وكيف انه يكون امرا
بديعا لو عاد الانسان الى الحياة حقا وطار الى المريخ او الى مكان
ما حيث يستطيع أن يعيش سعيدا بلا عمل الى الأبد ، وبالإضافة
الى ذلك يستطيع أن يكون حرا ليحيا حياة الروح . وقال يارتسييف
برقة :

- « ومع ذلك ، فأنا لا أريد أن أموت . وليست هناك فلسفة
يمكن أن تعزىنى عن فكرة الموت . فأنا أعتبره نهاية كل شىء ، وأريد
أن أعيش .

- هل تحب حياتك ؟

- نعم ، أحبها .

- أما بالنسبة الى ، فأنا لا أستطيع فهم نفسى ابدا . اجدنى
دائما ممزقا بين اليأس المظلم وعدم الاكتراث التام . أنا خجول ،
لا ثقة لى بنفسى ، ضميرى جبان ، وأنا عاجز تماما عن التكيف مع
الحياة لاصبح سيد مصرى . الرجال الآخرون يقولون كلاما فارغا ،
او يخدع كل منهم الآخر ، ويجدون متعة فى ذلك ، فى حين لا اجدنى
الا مضطرا أو غير مكترث ، حتى وأنا احاول فعل الخير . اعتقد
ان سبب ذلك انى عبد ، حفيد رجل من الرقيق . وكثيرون منا
نحن الرعاع سيهلكون قبل أن يوقفوا الى تحرير انفسهم ! » .

وقال يارتسيف وهو يتنهد :

— « كل هذا جميل يا صديقى ، وهو يوضح مرة أخرى مدى خصوبة الحياة فى روسيا وتنوعها . آه ، ما أشد خصوصيتها ! ان اقتناعى ليزداد يوما بعد يوم بأن اليوم الذى نعيشه الآن انما هو عشية انتصار عظيم ، وأحب أن أعيش لأشارك فى هذا الانتصار . صدق أو لا تصدق ، ولكنى أحس أن الجيل الذى ينمو الآن انما هو جيل عظيم . وحينما أعلم الأطفال ، والبنات منهم بصفة أخص ، أمتلىء سعادة . انهم أطفال رائعون ! » .

ذهب يارتسيف الى المعزف وعزف عليه نغمة ، ثم استأنف حديثه :

— « أنا كيميائى ، أفكر بأسلوب الكيمياء ، وسوف أموت وأنا كيميائى ، ولكنى غير مستقر ، أخشى أن أموت قبل أن أحصل على كفايتى ، فالكيمياء لا تكفينى ، ويجب أن أدرس تاريخ روسيا ، وتاريخ الفنون ، ونظريات التربية ، والموسيقى . . ذات مرة فى الصيف الماضى اقترحت على زوجتك أن أكتب مسرحية تاريخية ، والآن أعتقد أنى أستطيع أن أجلس للكتابة ثلاثة أيام بلياليها بلا انقطاع ودون أن أنهض . رأسى مكتظ ، ممتلىء الى حافته بالأفكار ، حتى ليوشك أن ينفجر ، وأستطيع أن أحس بنبضه واختلاجه . أنا لا أهدف الى أن أكون شيئا غير عادى ، ولا أتوقع أن أخلق احدى الروائع ، كل ما أريده هو أن أعيش ، وأحلم ، وأتطلع ، ولا يفوتنى شيء . . الحياة ، يا صديقى العزيز ، قصيرة جدا ، ويجب أن نستغلها بأقصى ما نستطيع » .

بعد هذا الحديث الودى الذى استمر حتى ساعة متأخرة من الليل ، بدأ لابتيف يزور يارتسيف كل يوم تقريبا . كان يحضر عادة قرب المساء ، ويتمدد على الأريكة ينتظر مجيء يارتسيف . وبعد

العشاء ، كان يارتسيف يجلس للعمل ، ولكن بعد قليل يسأله لابتيف سؤالا . فيبدأ محادثة ، وينسى يارتسيف العمل ، وعند منتصف الليل يفترق الصديقان ، وقد شعر كل منهما بمزيد من السرور نحو الآخر .

ولكن ذلك لم يستمر طويلا . فذات مرة ، حين جاء لابتيف وجد « راسودينا » جالسة الى المعزف تعزف تدربياتها . ولم تقدم له يدها ، وقالت له وهى تنظر اليه نظرات تكاد تكون عدائية :

- « هل تتكرم وتخبرنى متى سينتهى ذلك ؟ » .
- وسألها لابتيف مذهولا ؟
- « ماذا تقصدين ؟ » .

- انك تأتى الى هنا كل يوم وتعطل يارتسيف عن عمله . وبارتسيف ليس تاجرا ، انه عالم وكل دقيقة فى حياته ثمينة كان يجب أن تفهم هذا وتتزود ولو بقدر ضئيل من حسن التقدير . أخذ لابتيف وقال بخجل :

- « اذا كنت تعتقدين انى أعطله حقا ، فسأكف عن المجيء .
- رائع . والآن اذهب ، والا جاء ووجدك هنا » .

وأزعجته الى أبعد حد النعمة التى قالت بها هذا ونظرة عدم الاكتراث فى عينيها . اذ وضح له أنها لم يعد فى نفسها أقل احساس نحوه . وكان كل ما تريده هو أن يذهب . لشد ما يختلف الأمر الآن عما كان عليه من قبل !

خرج دون أن يصادفها ، متوقعا أن تناديه ليعود ، ولكنها استأنفت على الفور عزف تدربياتها الموسيقية ، وبينما كان يهبط الدرج ببطء شعر أنه قد أصبح بالفعل غريبا بالنسبة اليها . بعد ثلاثة أيام جاء يارتسيف ليقضى المساء عنده . وقال وهو يضحك ضحكة قصيرة :

– « لدى أخبار لك . لقد جاءت بولينيا نيكولايفنا لتعيش معى » .
وبدا مرتبكا بعض الشيء وهو يواصل حديثه بصوت أشد
انخفاضا :

– « فى الحقيقة . من المؤكد أننا لا يجب أحدنا الآخر ، ولكنى
لا أعتقد أن هذا بهم حقا . أنا سعيد لأنى أستطيع أن أقدم لها
مأوى ، وأمكنها من الاضططر للعمل اذا مرضت . وهى تعتقد أن
حياتى ستصبح أكثر نظاما لو عاشت معى ، وأنى بتأثيرها سأصبح
علما عظيما . هذا ما تظنه .

فلتستمر فى هذا الظن . « فالأحمق غنى بظنونه » . كما يقول
أهل الجنوب فى أمثالهم . هو ! هو ! » .

لم يقل لابتييف شيئا . وبدأ يارتسيف يذرع الحجرة ، ويتوقف
ليحدق فى اللوحات التى رآها مرات كثيرة من قبل ثم قال وهو
يتنهد :

– « نعم ، يا صديقى ، فأنا أكبر منك بثلاث سنوات ، وقد فات
بالفعل الوقت الذى يمكن أن أفكر فيه فى حب حقيقى . والواقع
أن امرأة مثل بولينيا نيكولايفنا تعتبر هدية من السماء بالنسبة الى ،
ولا شك أنى سأعيش معها فى سلام حتى مرحلة متأخرة من العمر ،
ولكنى مع ذلك لا أملك مقاومة الاحساس بأنى حرمت من شيء ،
وما زلت أحن الى شيء ، وأظل أتصور نفسى « مستلقيا فى وادى
بداغستان أحلم بحفلة راقصة كبرى » ، أو بكلمات أخرى ، الانسان
لا يقنع أبدا بما لديه » .

ثم دخل الى حجرة الاستقبال وغنى بعض أغانى الحب تماما
وكأن شيئا لم يحدث ، فى حين جلس لابتييف فى حجرة مكتبه وقد
أغلق عينيه وأخذ يحاول أن يفهم لماذا ذهبت راسودينا لتعيش مع

يارتسيف . واحزنه ان يعتقد انه لا وجود لشيء مثل علاقة ثابتة
مستمرة ، وغضب على يولينا نيكولايفنا لأنها ذهبت الى يارتسيف ،
وغضب على نفسه لأنه لم يعد يحب زوجته كما كان يحبها ذات
يوم .

جلس لابتيف يقرأ فى مقعده الكبير ذى اليدين ، وأخذ يتأرجح من جانب الى آخر وقد شغله التفكير . وكانت يوليا تقرأ هى الأخرى . منذ الصباح لم يتبادلا كلمة واحدة ، اذ بدا أنه ليس هناك ما يتحدثان عنه . وقال لابتيف لنفسه وهو يحدجها بنظراته من فوق كتابه بين الحين والآخر :

« ما الفرق بين أن يتزوج الانسان عن حب وبين أن يتزوج بدون حب ؟ » .

كم تبدو الآن بعيدة تلك الأيام التى كان يفار فيها ، تلك الأيام التى عرف فيها القلق والعداب ! منذ ذلك الحين وهو بالخارج ، وها هو ذا يستريح من رحلته ، لقد أعجبه انجلترا ، وقرر أن يعود اليها فى الربيع .

وكانت يوليا سيرجيفنا قد اعتادت حزنها الآن ، ولم تعد تنسحب بعيدا لتبكى . وفى ذلك الشتاء لم تطف ببيوت الأزياء ولم تذهب كذلك للمسارح ولا للحفلات الموسيقية . ولما كانت لا تحب الحجرات الكبيرة ، فقد كانت تمضى وقتها اما فى مكتب زوجها واما فى حجرتها حيث تحتفظ بالأيقونات التى كانت جزءا من بائنتها ، والمنظر الطبيعى الذى أعجبها فى المعرض . وقلما كانت تصرف نقودا على نفسها - لم تزد على المبلغ الذى كانت تصرفه حينما كانت تعيش مع أبيها .

كان شتاء مملا الى ابعد حد . كل من فى موسكو لعبوا الورق خلال هذا الفصل ، وحتى حينما كانوا يحاولون تسلية أنفسهم بالغناء ، أو القراءة ، أو الرسم ، كانت النتيجة مزيدا من الملل . ولما كانت المواهب شحيحة جدا فى موسكو ، ونفس المطربين والخطباء يمارسون نشاطهم فى كل مكان ، فقد ذبل الفن وتحول فى نظر الكثيرين الى واجب عمل مرهق لا اكثر .

وفضلا عن ذلك ، فقد كان كل يوم يأتى لآل لابتيف بمتاعب جديدة . فقد ضعف نظر فيودور ستيبانيتش العجوز الى ابعد حد ، ولم يعد يذهب الى المخزن ، وتنبأ طبيبه بأنه سرعان ما سيفقد البصر تماما . وكف فيودور كذلك عن الذهاب الى المخزن لسبب ما ، وكان يقضى كل وقته فى البيت ، يكتب . وبانوروف الذى نجح فى نقل نفسه الى مدينة أخرى ورقى الى وظيفة مستشار دولة ، أصبح يعيش الآن فى فندق درسدن ، ويأتى كل يوم تقريبا الى لابتيف ليقترض نقودا . أما « كيش » فقد تخرج أخيرا فى الجامعة ، وهو ينتظر الآن أن يجد له لابتيف وظيفة مناسبة ، وفى هذه الأثناء يقضى فى بيتهم أياما بطولها يروى حكاياته التى لا تنتهى . كل ذلك أثار أعصاب لابتيف وأرهقه وجعل حياته تعسة الى ابعد حد .

دخل بيوتر الى حجرة المكتب ليعلن أن سيدة ترغب فى مقابلة سيده . وقدم للابتيف بطاقة زيارة كتب عليها : « جوزفينا أيوسيفوفنا . ميلانو » .

نهضت يوليا سرجيفنا برشاقة وخرجت وهى تمرج عرجا خفيفا فى مشيتها من أثر تشنج فى قدمها . وظهرت عند الباب سيدة ترتدى السواد ، كانت نحيلة ، ذات حاجبين سوداوين بارزين فى وجهها الشاحب . وقالت وهى تضغط يديها على صدرها :

– « مسيو لابتيف ، انقد طفلتى الصغيرتين ! » .
كان رنين الاساور ولطح المساحيق مألوفين للابتيف ، انها
السيدة التى تغذى فى منزلها دون داع قبيل زواجه مباشرة –
زوجة بانوروف الثانية .

وعادت تكرر ووجهها يتقلص :

– « انقد طفلتى الصغيرتين ! » .

وفجأة بدت عجوزا تستثير الشفقة واحمرت عيناها :

– « انت وحدك الذى تستطيع انقاذنا . لقد أنفقت آخر ما معى
من نقود لكى أحضر الى هنا ، الى موسكو . ستموت طفلتاى من
الجوع » .

وتقدمت بصورة توحى بانها ستجثو على ركبتيها . فأمسكها
لابتيف من ذراعها بفزع ، وتمتم قائلا وهو يقودها الى أحد المقاعد :
– « تفضلى بالجلوس ، اجلسى أرجوك » .

قالت :

– « ليس لدينا نقود حتى لشراء الخبز . سيسافر جريجورى
نيكولاييفيتش ليتسلم وظيفة جديدة ، ولكنه لا يريد ان يأخذنى معه
أنا والطفلتين ، والنقود التى ترسلها الينا بكرمك الفائت ينفقها على
نفسه ، فماذا نصنع ؟ آه يا لطفلى المسكينتين التعميستين !
– اطمئنى أرجوك . سأصدر أمرى لموظفى بأن يرسلوا النقود لك
شخصيا » .

كانت تبكى بصوت مرتفع ، ولكنها بدأت تهدأ الآن ، ولاحظ ان
الدموع خلقت مجارى عميقة وسط المساحيق المتكاثفة على وجنتيها،
وان لها شاربا .

– « مسيو لابتيف ما اشد كرمك ، ولكننى أرجوك ان تكون
ملاكنا الحارس ، وراعينا المنقذ ، فتقنع جريجورى نيكولاييفيتش

بالا يهجرنا . قل له ان يأخذنى معه . فانا احبه ، احبه بجنون ،
ولا عزاء لى سواه » .

اعطاها لابتيق مائة روبل ووعدھا بأن يحادث بانوروف ، ثم
اوصلھا حتى الباب ، وهو يخشى طوال الوقت أن تنفجر فى البكاء
او تجثو على ركبتھا مرة اخرى .

وبعد أن ذهبت جاء « كيش » ، ثم تلاه كوستيا ومعه آلة تصويره .
لقد أغرم فى الفترة الأخيرة بالتصوير الفوتوغرافى ، وغان يصور
جميع من فى المنزل عدة مرات كل يوم . وقد تسببت له هذه
الهواية الجديدة فى كثير من المتاعب ، بل وفقد بسببھا قدرا غير
قليل من وزنه .

وقبل موعد تناول الشاى وصل فيودور . وبعد أن اتخذ لنفسه
مقعدا مريحا فى حجرة المكتب ، فتح كتابا وجلس يحدق فيه
طويلا ، وكان من الواضح انه لا يقرأ شيئا . وظل يترىث وقتنا طويلا
فوق شايه حتى احمر وجهه . وأحس لابتيق حزنا مؤلما لوجود
فيودور ، حتى صمته كان مزعجا .
وأخيرا قال فيودور :

– « تستطيع أن تهنىء روسيا لفوزها بصحفى جديد . الكسى
لندع المزاح جانبا ، لقد كتبت مقالة ، أو محاولة من محاولات القلم
إذا شئت ، وقد أحضرتها معى لأريها لك . اقرأها ، فأنت صديق
طيب ، وقل لى ما رأيك فيها . ولكن تذكر أنى أريد رأيك الصريح » .
وأخرج مفكرة من جيبه وقدمها لشقيقه .

كان عنوان المقالة : « الروح الروسية » ، وكانت مكتوبة بتلك
اللغة المملة التى لا لون لها والتى يستخدمها عادة أولئك الذين
لا يملكون أى قدر من الموهبة وان كانوا مغرورين مع ذلك فى
اعماقهم ، والفكرة الرئيسية فى المقالة هى أن من حق المثقف الا

يؤمن بالفيبيات ، ولكنه يجب عليه أن يخفى عدم إيمانه لكيلا يقود الآخرين الى اللبلة ويزلزل إيمان الناس ، فبدون الإيمان تنهار المثل العليا ، والمثالية هي المقدر لها أن تنقذ أوروبا وتهدى البشرية الى طريق الصواب .

وقال لابتييف :

– « ولكنك لم تقل ما الذى ستنقذ أوروبا منه » .

– « هذا واضح » .

وعاد لابتييف يقول وهو ينهض ويذرع الأرض :

– « لا شيء من هذا أبدا . وهدفك من كتابة المقالة غير واضح

أيضا . على كل حال هذا شأنك أنت » .

– اعتزم نشرها فى كتيب صغير .

– « هذا شأنك » .

وظلا صامتين بضع دقائق . قال بعدها فيودور :

– « حقا ، ما أعمق حزنى لأنك أنت وأنا لا نشترك فى نفس

الآراء . آه يا الكسى ، الكسى يا أخى العزيز ! أنت وأنا روسيان ،

نخشى الله ، وقلباننا كبيران ، فما قيمة كل هذه الأفكار الألمانية

واليهودية العفنة بالنسبة لنا ؟ على كل حال ، أنا وأنت لسنا

وضيعى الأصل بأى حال ، نحن عضوان فى أسرة تجارية مرموقة » .

واعترض لابتييف وهو يحاول كبح جماح غضبه :

– « أى أسرة تجارية مرموقة ؟ أسرة مرموقة ! كان أصحاب

الأرض يجلدون جدنا . وكان كل موظف صغير حقير يبصق فى

وجهه . جدى جلد أبى ، وأبى جلدك وجلدنى . اسرتنا المرموقة ماذا

ورث عنها كل منا ؟ أى أعصاب وأى دماء تلك التى ورثناها ؟ لقد

ظللت ما يقرب من ثلاث سنوات تثرثر فى كل مكان كالمبشر ، وتحدث

بكل أنواع السخف ، والا هاأنتذا قد كتبت هذا .. هذا الخبل

الحقير ! وماذا عنى أنا ؟ انظر الى .. ليس لدى مرونة ، ولا شجاعة ، ولا قوة شخصية ، أخاف من كل خطوة أخطوها وكأن شخصا ما سيضربنى ، وأرتعد فرقا أمام كل أنواع الحقرء ، والحمقى ، والقذرين الذين يقلون عنى عقليا وروحيا ، أخاف من الكناسين فى الشوارع ، ومن البوابين ، ومن رجال البوليس والخفراء ، أخاف من الجميع ، لانى خرجت من رحم امرأة فزعة ، ولانى منذ طفولتى وأنا أزجر وأنهر وتساء معاملتى ! أنت وأنا نحسن صنعا اذا لم ننجب أطفالا أبدا . وأبتهل الى الله ان تنتهى هذه الأسرة المرموقة بنا ! » .

دخلت يوليا سيرجيفنا الحجره وجلست الى المائدة وقالت :
- « هل كنتما تتناقشان حول شىء ما ؟ أرجو ألا أكون قد قطعت حديثكما » .

وأجاب فيودور :

- « لا أبدا ايتها الأخت الصغيرة . كنا نناقش مسألة مبدأ » .

ثم واصل حديثه وهو يلتفت نحو أخيه :

- « الآن أنت تسيء الى الأسرة ، ومع ذلك فهذه الأسرة انشأت مشروعا تجاريا تقدر قيمته بالملايين . وهذا يساوى شيئا بلا شك .
- يا له من نجاح . مشروع تجارى تقدر قيمته بالملايين ! رجلا بلا أى ذكاء أو مواهب خارقة تصادف أن أصبح صاحب متجر ، ثم أترى وظل يبيع بضائعه يوما بعد الآخر دون أى نظام أو هدف ، ودون أن يجهد نفسه فى جمع الثروة ، بل ظل يبيع بطريقة آلية لا أكثر ، وجاءت النقود متدفقة دون أن يبذل أى جهد من جانبه . انه يقضى حياته كلها فى العمل ويحبه لانه ببساطة يتيح له فرصة التحكم فى موظفيه وخداع زبائنه . وهو أحد رؤساء الكنيسة لانه هناك يستطيع أن يتحكم فى الجوقة ، ويجعل أفرادها ينفذون أوامره ،

وهو يرمى المدرسة لأنه يحب النفوذ الذى يتيح له على غيره من الناس ، ومخزنكم ليس مشروعا تجاريا ولكنه سجن مظلم ! نعم ، ففى ذلك الطراز من أعمالكم لا تحتاجون الا الى موظفين مذعورين ، وهذا النوع تدربونه عن طريق الاجبار منذ الطفولة المبكرة على أن ينحنى أمامكم من أجل كسرة الخبز ، ومنذ الطفولة تعلمونهم أن ينظروا اليكم باعتباركم أصحاب الفضل عليهم . ولا يمكن أن تعينوا خريجا فى الجامعة فى مخزنكم ، لا يمكن أن تفعلوا ذلك ! » .

— « خريجو الجامعة لا يناسبون عملنا » .
وصرخ لابتيف :

— « هذا غير صحيح : هذا كذب ! » .
وقال فيودور وهو ينهض :

— « أرجو المذرة ، ولكن يبدو أنك بدأت تلوث عشك ، أنت تحتقر عملنا ومع ذلك فحياتك قائمة على أرباحه » .

وقال لابتيف وهو يصدر ضحكة جافة والشرر يتطاير من عينيه :
— « أها ! هذا هو مربط الفرس . نعم ، فلو أنى لا أنتمى الى اسرتكم المرموقة ، ولو كان لدى مقدار كوبك واحد من العزيمة والشجاعة لأطحت بهذا الدخل منذ زمن بعيد وذهبت لأكسب حياتى بنفسى . ولكنكم فى مخزنكم هذا سلبتمونى العزيمة والشجاعة ! أنا أنتمى اليكم » .

نظر فيودور الى ساعته ثم أسرع بالاستئذان . وقبل يد يوليا ثم خرج . وبدلا من أن يذهب الى الردهة ، ذهب الى حجرة الاستقبال ، ومنها الى حجرة النوم .
وقال يائسا :

— « لقد تهت . يا له من منزل غريب . أو ليس منزلا غريبا فعلا ؟ » .

وبدا مذهولا وهو يرتدى معطفه ، وعلى وجهه كانت نظرة عذاب .
انفثا غضب لابتيف ، وانتابه الآن فزع وفي نفس الوقت اشفاق على
فيودور ، وشعر بذلك الحب الدافئ الاصيل نحو شقيقه يستيقظ
فى صدره ، وكان يظنه قد مات خلال السنوات الثلاث الماضية ،
وأحس فى نفسه رغبة جارفة فى أن يعبر عن ذلك الحب بأى
طريقة ، فقال وهو يربت على كتف شقيقه :

— « فيودور يجب أن تأتى لتتغدى معنا غدا . هل ستأتى ؟

— نعم ، نعم . ولكن اعطنى كوبا من الماء ، أرجوك » .

وجرى لابتيف الى حجرة الطعام ، وأمسك بأول شئ عثر عليه
وكان كأس جعة طويلا ، وملاه بالماء وأحضره لشقيقه . عب فيودور
الماء عبا ، ولكنه فجأة عض حافة الكأس ، وسمع صوت طحن ثم
نحيب . وسقط الماء على معطفه وعباءته . ولم يكن لابتيف قد شهد
رجلا يبكى من قبل ، فوقف مذعورا مرتبكا ، فى حين أخذت يوليا
والخادمة معطف فيودور وقادتاه عائدتين به الى حجرة الاستقبال ،
وتبعهما وقد ملاه احساس بالذنب .

جعلت يوليا « فيودور » يتمدد على الارىكة ، وجثت على ركبتيها
الى جواره ، وقالت مواسية :

— « لا شئ أبدا . مجرد ارهاق عصبى .. » .

فقال :

— « أنا يائس ، أنا شديد التعاسة .. ولكنى ظلت أخفى ذلك
طوال الوقت ! » .

ووضع ذراعه حول عنقها وهمس فى أذنها :

— « أنا أحلم كل ليلة بشقيقتى نينا . تأتى وتجلس على المقعد

الوثير المجاور لسريرى .. » .

وبعد ساعة كان يرتدى معطفه فى الردهة مرة أخرى ، وكان

الآن يتسّم ، ويحس بالخجل من الخادمة . وأوصله لابتيف الى البيت . وقال وهما فى الطّريق الى بيت فيودور فى شارع بيانيتسكايا :

– « يجب أن تحضر للغداء غدا . وفى عيد الفصح سنسافر الى الخارج معا . أنت بحاجة الى التغير فقد أرهقت كثيرا .. »
– نعم ، نعم . سأذهب ، سأذهب .. وسأأخذ الأخت الصغيرة معنا » .

وحين عاد لابتيف الى البيت ، وجد زوجته فى حالة اضطراب عصبى – فقد هزها انهيار فيودور بعنف . لم تكن تبكى ولكنها كانت شديدة الشحوب ، وكانت تنقلب فى السرير وتنشب أصابعها الثلجة فى الملاءة والوسادة ويدي زوجها . كانت عيناها متسعيتين ومذعورتين توسلت قائلة :

– « لا تتركنى ، لا تتركنى . اخبرنى يا ألكسى لماذا كفت عن الصلاة ؟ ما أصاب ايمانى ؟ آه ، لماذا تحدثت عن الدين كثيرا أمامى ! لقد أربكت عقلى ، أنت وأصدقائك . فلم أعد أصلى » .
استعان بالكمادات الباردة على جبهتها ، وأخذ يدفئ يديها ، وقدم لها شايا لتشربه ، ولكنها ظلت متشبثة به فى فرع .

وقرب الصباح استفرقت فى نوم مجهد ، وظل لابتيف جالسا بجوارها ممسكا بيدها ، ولم يذهب الى الفراش فى تلك الليلة ، وظل طوال اليوم التالى يشعر بالارهاق فى عقله وجسده ، وظل يتجول فى المنزل بلا هدف ، مشلول الفكر .

قال الأطباء ان فيودور مضطرب عقليا . ولم يكن لابتيف ليعرف شيئا عما يدور فى بيانيتسكايا ، وبدا المخزن الكئيب فى نظره كالمقبرة دون العجوز وفيودور . وحين كانت زوجته تقول له انه يجب أن يزور المخزن والبيت فى بيانيتسكايا كل يوم ، كان لا يجب أو يشرع فى الحديث باضطراب عن طفولته ، قائلا انه لا يستطيع أن يعفو عن أبيه بسبب الماضى ، وان كلا من بيانيتسكايا والمخزن كراهه فى نظره .. وهكذا .

وفى صباح يوم أحد ذهبت يوليا الى بيانيتسكايا بنفسها ، فوجدت فيودور ستبانيتش العجوز فى نفس حجرة الاستقبال التى اقيمت فيها صلوات الكنيسة بمناسبة وصولها . وكان يرتدى سترة من الكتان الخشن دون رباط عنق ، ويجلس بلا حراك فى مقعد كبير ويطرف بعينه الضيرتين .

قالت وهى تتقدم نحوه :

— « أنا زوجة ابنك ، جئت لاراك » .

بدأ يتنفس بصعوبة . وانفعلت بحزنها ووحدتها فقبلت يده ، وتحسس وجهها ورأسها ، كأنما ليتأكد أنها هى ، ثم رسم علامة الصليب فوقها وقال :

— « شكرا لك ، شكرا لك ، لقد فقدت بصرى كما تعلمين ، ولم أعد أرى .. أستطيع أن أميز بغير وضوح النافذة والنار ، أما

الناس والأشياء فلا أستطيع رؤيتها . . نعم ، سوف أصبح أعمى .
وفيودور مريض وليس هناك من يراقب الأشياء . من سيعاقب
المذنب اذا وقع خطأ ما . سيخرج العمال من أيدينا تماما . ماذا
حدث لفيودور ؟ هل أصيب ببرد ؟ أنا لم أمرض طوال حياتي
ولم أتعاط أدوية أبدا . ولم يكن لى أى صلة بالأطباء » .
وكالعادة دائما بدأ العجوز يفخر بنفسه . وفى هذه الأثناء
أسرعت الخادمة باعداد المائدة ، ووضعت عليها أدوات الطعام
والشراب . وظهر ما يقرب من عشر زجاجات ، من بينها واحدة
تشبه برج ايفل . وقدم طبق كبير من الفطائر الساخنة تنبعث منها
رائحة الأرز المغلى والأسماك .

وقال العجوز :

— « يجب أن تأكلى معى قليلا يا عزيزتى » .

أسسكت بذراعه وقادته الى المائدة وصبت له شيئا من الفودكا ،
ثم قالت :

— « سأحضر غدا مرة أخرى وأحضر معى حفيدتك « ساشا »
و « ليدا » سيسران برؤية جدهما .

— لا ، لا تحضريهما . انهما غير شرعيتين .

— لماذا تقول هذا ؟ لقد كان أبوهما وأمهما متزوجين .

— نعم ، ولكن دون موافقتى . لم أباركهما ولا أريد أن يكون لى
شأن بهما . فليرحمهما الله » .

وقالت يوليا وهى تتنهد :

— « ما أغرب ما تقول يا فيودور ستبانيتش .

— يقول الانجيل ، يجب أن يحترم الأطفال آباءهم ويخشوهم .

— لا ، الانجيل لا يقول ذلك ، بل يقول اننا يجب أن نعتفو عن
أعدائنا .

— لا يمكن أن يكون هناك أى عفو فى مسألة كمسالتنا . ولو أنك بدأت تعفين عن الجميع فسوف تفلسين فى بحر ثلاث سنوات .
— « ولكن أن تعفو ، وتقول كلمة طيبة حتى لمن أخطأ فى حقك أهم بكثير من العمل أو الثروة » .

أرادت يوليا أن تلين قلب العجوز ، وتوقظ فيه الشفقة وتأييب الضمير ، ولكنه استمع الى كل ما قالته كما يستمع الكبار الى ثرثرة الأطفال .

وقالت يوليا بحزم :

— فيودور ستبانيتش ، لقد أصبحت عجوزا بالفعل ، وعمما قريب سيستدعيك الله الى جواره ، وهو لن يسألك كيف أدت عملك ، وعمما اذا كانت تجارتك قد ازدهرت أو لا ، ولكنه سيسألك هل كنت كريما مع اخيك الانسان أو لا ، وهل كنت قاسيا مع من هم أضعف منك ، مع خدمك وموظفى المبيعات مثلا .

— لقد كنت دائما محسنا على كل موظفى ، ويجب أن يظلوا شاكرين دائما أن كان لهم صاحب عمل مثلى » .

قال العجوز ذلك بايمان . ولكنه تأثر بالنبرة المتلهفة فى حديث يوليا ، ولكى يبعث السرور فى نفسها أضاف :

— « حسن جدا ، تستطيعين أن تحضرى الطفلتين غدا . وسأمر باحضار بعض الهدايا لهما » .

كان العجوز يرتدى ملابسه باهمال واضح ، وكان هناك رماد سيجار على صدره وركبتيه ، وكان من الواضح أن أحدا لا يعبأ بتنظيف حدائه أو تفريش ملابسه . وكان الأرز فى الفطيرة سيء الطهو ، ورائحة الصابون تنبعث من غطاء المائدة . والخدمة تدب بقدمها على الأرض . كان هناك جو عام من الاهمال للعجوز ولنزل

بياتنيتسكايا كله ، وشعرت يوليا بالخجل من نفسها ومن زوجها ،
قالت :

— « سأحضر غدا دون تأخير » .

تجولت فى الغرف ، وأمرت بترتيب سرير العجوز ، واشعال
مصباح ايقونته . وكان فيودور جالسا فى حجرته يحرق فى كتاب
مفتوح وكأنه يحرق فى الفضاء . فتحدثت يوليا معه وأمرت بتنظيف
حجرته . ثم ذهبت الى مساكن الموظفين . وكانت هناك دعامة من
الخشب غير المظلى ترفع السقف فى وسط الحجرة التى يتناول
فيها الموظفون طعامهم ، وكانت الجدران مغطاة بورق حائط رخيص ،
وثمة رائحة طبخ كريهة . وكان اليوم الأحد وجميع الموظفين بالمنزل
جالسين على أسرهم فى انتظار الطعام . وحين دخلت يوليا قفزوا
واقفين وأجابوا عن أسئلتها بخجل ، وهم ينظرون اليها بحزن وكانهم
سجناء .

قالت وهى ترفع يديها الى أعلى :

— « يا لله ، يا له من مكان كئيب ! أو لستم مزدحمين هنا ؟ » .

وقال ماكيتشيف :

— « ليس لدينا ما نشكو منه يا سيدتى . ونحن مدينون لك

بالفضل العميم ، وندعو الله أن يباركك » .

وقال بوتشتكين بايجاز :

— « الاستجابة للحياة والطموح الشخصى » .

وسارع ماكيتشيف بالتوضيح قائلا :

— « نحن قوم متواضعون نعيش فى مستوى مركزنا » .

تفقدت يوليا جناح الصبيان والمطبخ ، ووجهت بعض الأسئلة
الى مديرة البيت ، ثم انصرفت ، وهى فى شدة الضيق من كل
ما رأت .

وحين عادت الى البيت قالت لزوجها :
- يجب أن ننتقل الى بيانتيتسكايا بأسرع ما نستطيع ، ويجب أن
تذهب الى المخزن كل يوم .

وظلا جالسين متجاورين فى حجرة المكتب مدة طويلة دون أن
يتحدثان . كان قلبه مثقلا ، ولم يكن يريد الذهاب لا الى بيانتيتسكايا
ولا الى المخزن ، ولكنه خمن ما يدور فى ذهن زوجته ولم يجد فى
نفسه القوة على معارضتها . فقال وهو يربت على خدها :

- « أحس كأن حياتنا قد انتهت بالفعل وأنا قد بدأنا نوعا من
الوجود الباهت القريب من العدم . حين سمعت ان فيودور مريض
مرضا ميؤوسا منه بكيت . لقد أمضينا طفولتنا وشبابنا معا ، وفى
فترة كنت أحبه جدا شديدا ، والآن تحدث هذه المصيبة . فأحس
أنى أنفصل عن الماضى الى الأبد . والآن حين تقولين أننا يجب أن
ننتقل الى بيانتيتسكايا ، الى ذلك السجن ، يداخلى احساس بالألم
مستقبل لى أيضا » .

قام وسار الى النافذة . ثم قال وهو يحرق فى الشارع .
- « نعم ، يجب أن يبعد الانسان والى الأبد كل فكرة للسعادة .
لا وجود لشيء كهذا . انى لم أعرفها أبدا ، وأشك فى امكان وجودها
على الاطلاق . لقد سعدت مرة واحدة فى حياتى : تلك الليلة التى
جلست فيها تحت مظلتك » .

واستدار نحو زوجته وسألها :
- « أتذكرين المظلة التى تركتها عند شقيقتى نينا ؟ كنت أحبك
وقتها ، وأذكر انى جلست تحت تلك المظلة طوال الليل وكنت فى
حالة من السعادة الكاملة » .

والى جوار دولاب الكتب كانت هناك خزانة من الخشب الثمين
والبرونز يحتفظ فيها لابتيف بمجموعة من الأشياء غير النافعة ، من

بينها المظلة ، فأخرجها وقدمها لزوجته وهو يقول :

- « ها هي ذى » .

نظرت يوليا الى المظلة لحظة ، وتذكرتها وابتسمت فى حزن ،
ثم قالت :

- « نعم ، أتذكر الآن . كنت تمسكها فى يدك وأنت تطلب
يدى » .

وبينما هو يتهيأ لمغادرة الغرفة قالت :

- « أرجو أن تحاول العودة الى البيت مبكرا بعض الشيء . فأنا
أشعر بالوحشة بدونك » .

وصعدت الى غرفتها وظلت تحدد فى المظلة وقتا طويلا .

رغم ضخامة أعمال آل لابتيف وتشعبها فانهم لم يستخدموا محاسبا ، والدفاتر التي يحررها الكاتب غير صالحة بالمرّة . وكان وكيل الأعمال الألماني والانجليزى اللذان يحضران كل يوم الى المخزن يناقشان شئون السياسة والدين مع الموظفين . وثمة زائر آخر منتظم ، وهو نبيل سكير ، انه مخلوق مريض يستثير الاشفاق ، وكان يقوم بترجمة المراسلات الأجنبية للمتجر ، وكان الموظفون يسمونه « العاطفى » ويضعون الملح فى شايه . وكانت المؤسسة كلها تبدو غاية فى السخف فى نظر لابتيف .

انه الآن يذهب الى المخزن كل يوم ، ويبدل قصارى جهده لتغيير الأوضاع : فمنع جلد الصبيان ، وغش الزبائن ، واستشاط غضبا حين رأى الموظفين يقدمون بضائع قديمة لا تجد من يشتريها لزبون من الأقاليم على انها أحدث ما فى السوق . ولكن رغم انه أصبح مسئولا عن المخزن الآن ، فلم يكن يعرف مقدار ثروته بالضبط ، ولا اذا ما كانت التجارة تزدهر أم لا ، ولا مقدار ما يتقاضاه كبار الموظفين . كان بوتشتكين وماكيتشيف يعتبرانه أصغر وأقل خبرة من أن يطلعاه على أسرار المؤسسة ، وكانا يعقدان كل مساء اجتماعات طويلة هامة مع السيد العجوز الأعمى .

وذات يوم فى أوائل يونيو ذهب لابتيف وبوتشتكين الى حانة بوبنوف ليتعشيا ويتحدثان فى شئون العمل . كان بوتشتكين يعمل

مع آل لابتيف منذ كان فى الثامنة من عمره . وكانوا يعتبرونه فردا من الاسرة ويشقون به ثقة كاملة وقبل أن يفادر المخزن كان يأخذ ايصالات اليوم من الخزانة ويحشو بها جيوبه . كان السيد فى المخزن وفى البيت ، بل وفى الكنيسة أيضا ، حيث كان يؤدى واجبات شيخ الكنيسة بدلا من العجوز . ولوحشيته فى معاملة الصبية أطلقوا عليه اسم « مالاپوتا سكولاتوف » .

حين دخلا الحانة واستدعى الساقى وقال له :

— « احضر لنا نصف الكنز وأربعا وعشرين أذية » .

وبعد تأخير قليل قدم لهما الساقى صينية عليها نصف زجاجة فودكا وعدة أطباق مصنوفة من المأكولات الباردة . فقال له بوتشكين :

— والآن يا رجلي ، علينا بطبق من النميمة والفضائح مع بعض البطاطس المهروسة » .

وبدا الارتباك على الساقى ، وكان على وشك أن يقول شيئا ، ولكن بوتشكين حدجه بنظرة وقال :

— « وبالإضافة الى ذلك ! » .

قدح الساقى زناد ذهنه بعض الوقت ، ثم ذهب للتشاور مع زملائه ، وفى النهاية حل اللغز واحضر طبقا من اللسان .

وبعد أن شربا كأسين واكلا قليلا ، قال لابتيف :

— « هل صحيح أن تجارتنا بدأت فى التدهور خلال الأعوام القليلة الماضية ؟

— لا .. غير صحيح بالمره .

— أرجوك أخبرنى بصراحة وشرف : ما مقدار المال الذى يدخل لنا ، وما رأس المال الذى لدينا فى الوقت الحاضر ؟ .. اننا لانستطيع أن نستمر ونحن نتخبط . لقد رأيت حسابات المخزن منذ فترة

قريبة ، ولكن يحزننى أن أقول انى لا أصدقها ، فليسبب ما تعتقدون انه من الضرورى أن تبقونى جاهلا ، ولا تقولوا الحقيقة الا لآبى . كانت هذه السياسة منذ كنت صبيا ، ولن تستطيع أن تستمر بدونها ولكن الآن حان الوقت لتركها . أرجوك كن صريحا معى . ما حالة حساباتنا ؟ » .

وبعد لحظات من التدبير أجاب بوتشتكين :

– الأمر كله يتوقف على حمى البيع بالأجل .

– « ماذا يقصد بحمى البيع بالأجل ؟ » .

وبدا بوتشتكين يشرح ، ولكن لابتيف لم يستطع أن يفهم ، وأرسل استدعى ماكيتشيف . وحضر الأخير على الفور ، وتناول شيئا من الطعام بعد أن طلب الففران ، ثم أعلن فى صوته الغليظ الصاحب أن الموظفين يجب أن يقدموا صلوات الشكر لله أثناء الليل وأطراف النهار لأنه أتاح لهم أمثال هؤلاء السادة المحسنين . وقال لابتيف :

– « هذا رائع ، ولكن اسمح لى الا اعتبر نفسى أحد المحسنين

اليكم .

– على كل انسان أن يتذكر من هو ويعرف مكانه . وأنت ، بفضل

من الله ، أبونا وراعينا ، ونحن عبيدك » .

وصرخ لابتيف غاضبا :

– « اسمع ، لقد تعبت وضقت ذرعا بكل هذا ! هل تحب أن

تكون أنت راعى وتحيطنى علما بحالة تجاربنا . اذا لم تكفا عن معاملتى

كطفل فسوف أغلق المخزن غدا . ان أبى أعمى ، وأخى فى مصحة

للأمراض العقلية ، وبننتا أختى قاصرتان ، وأنا أكره التجارة من كل

قلبى ، وسوف يسعدنى أن أتخلى عنها ، ولكن ليس هناك من يحل

محلّى ، كما تعلمان بنفسيكما . لذلك بالله عليكما أتركها هذه السياسة الحمقاء التى تتبعانها » .

ذهب ثلاثتهم الى المخزن وبدأوا يراجعون الحسابات . وفى المساء واصلوا حساباتهم فى البيت ، بمساعدة العجوز . وكانت نفمة صوته وهو يحيط ابنه بأسرار مهنته توحى بأنه لا يعمل بالتجارة بل بالسحر الأسود . وظهر أن الدخل السنوى زاد بمقدار العشر ، وأن ثروة لابتيّف من النقود السائلة والضمانات وحدها تصل الى ستة ملايين رويل .

كان الوقت بعد منتصف الليل حين خرج لابتيّف ليستروح نسمة هواء ، وهو ما زال مأخوذاً بهذه الأرقام . وكانت ليلة قمرية حارة رطبة ، وكانت حوائط منازل موسكو البيضاء وأبوابها المثقلة بالزليج ، والصمت والأشباح القاتمة ، كانت كلها تشبه القلعة ، ولم يكن ينقصها سوى الحارس بينديته .

دخل لابتيّف الحديقة الصغيرة وجلس على مقعد بالقرب من السور الذى يفصل فناءهم عن فناء الجيران . كانت شجرة طائر الكرز مزهرة ، ولابتيّف يذكر هذه الشجرة من أيام طفولته ، ما زالت بالضبط كما كانت فى ذلك الحين ، بنفس تعقد جذعها ، ولم يزد طولها بوصة واحدة . كل ركن فى الحديقة والفناء يستثير فيه ذكريات الماضى البعيد . الماضى كالحاضر ، تذكر كيف كنت تستطيع أن ترى من بين فروع الأشجار الفناء وقد أضاءه ضوء القمر . وفى تلك الأيام كذلك كانت الأشباح قاتمة وغامضة ، وتمطى كلب وسط الفناء ، وتشاءبت نوافذ مسكن الموظفين ثم فتحت . ولم يكن فى كل ذلك ذكرى واحدة سعيدة .

سمع وقع أقدام خفيفة فى الفناء المجاور ، وصوت رجل يهمس الى جوار السور :

كانت الأصوات قريبة جدا من المكان الذى جلس فيه لابتيف ، بحيث استطاع أن يسمع تردد أنفاسهما . وتعانقا .

كان لابتيف واثقا بأن الملايين والتجارة التى يكرهها أشد الكرهية سوف تدمران حياته وتستبعدانه تماما ، ورأى نفسه وهو يعود شيئا فشيئا على مكانته ، ويتخذ بالتدريج سمات مدير المؤسسة التجارية ، ثم يتقدم فى السن والشيوخوخة ، وفى النهاية يموت كما يموت غيره من الناس ممن لا قيمة لهم - يأسا حزينا ، وعبثا على على كل من حوله . ولكن ما الذى يحول بينه وبين هجرة التجارة والابتعاد عن هذه الحديقة والفناء اللذين كرههما منذ طفولته ؟

وأثارته الهمسات والقبيلات خلف السور . فسار الى وسط الفناء ، وفك القميص من حول عنقه ووقف يحدق فى القمر . بعد دقيقة سيأمر بفتح البوابة ويخرج من هذا الفناء ولا يعود أبدا . وقفز قلبه لفكرة الحرية ، وضحك بصوت مرتفع وهو يتخيل كيف يمكن أن تصبح الحياة مجيدة ، ورومانتيكية ، بل وربما قدسية أيضا . .

ولكنه لم يتحرك من حيث كان يقف . وسأل نفسه :

« ما الذى يقينى هنا ؟ » .

واحتقر نفسه وذلك الكلب الأسود المستلقى هناك على قطع الحجر بدلا من الجرى فى الحقول والغباب حيث يجد السعادة والحرية . من الواضح أنه وذلك الكلب كانا عاجزين عن مغادرة هذا المكان لنفس الأسباب : لقد تحولت القيود والعبودية الى عادة



وفى ظهر اليوم التالى ، ذهب الى « بوتوفو » حيث يمضون الصيف ، وصحب معه يارتسيف رغبة فى الرفقة . ولم يكن قد رأى

زوجته منذ خمسة أيام . ركبا عربة من المحطة وظل يارتسيف طول الطريق يغنى أغنيات ويمتدح روعة الجو .

كان المنزل يتوسط حديقة واسعة ، وقد وجد يوليسا تحت شجرة حور متشعبة عند بداية الشارع الرئيسى بالقرب من البوابة كانت ترتدى ثوبا صيفيا أنيقا لونه أصفر شاحب ومطرز بالدانتيل ، وكانت ممسكة بمظلتها القديمة المألوفة . وتبادل بارتسيف معها التحيات ، ثم أسرع نحو البيت حيث كانت تنبعث أصوات «ساسا» و «ليدا» ، فى حين جالس لابتيف ليتحدث مع زوجته .

– « لماذا تغيبت كثيرا هكذا ، لقد ظلت جالسة هنا يوما بعد الآخر أترقب عودتك . فأنا أحس بوحشة شديدة بدونك ! » .

ونفضت ومسحت على شعره ، وهى تتفحص وجهه وكتفيه وقبعته ، ثم قالت :

– « أتعلم أنى أحبك » .

واحمر وجهها وهى تضيف :

– « أنت عزيز على جدا . والآن قد جئت ، أراك وأجدنى سعيدة للغاية . فلنثرثر قليلا . قل لى شيئا » .

بينما كان ينصت لاعلانها حبها له ، أحس وكأنهما متزوجان منذ عشرة أعوام ، ورغب فى تناول غدائه .

ألقت بذراعيها حول رقبتة ، فداعب حرير ثوبها خده ، تخلص منها برفق ، ونهض ومضى فى الممر المؤدى الى البيت . وجرت الفتاتان الصغيرتان للملاقاة .

قال لنفسه :

– « لكم كبرتأ ! وما أكثر التغييرات الهائلة التى حدثت خلال هذه السنوات الثلاث . تصور أن الانسان قد يعيش ثلاث عشرة

سنة اخرى ، او ربما ثلاثين . ومن يستطيع أن يعلم ماذا يمكن أن يحدث وقتئذ . حسنا ، ليس بوسعنا إلا أن ننتظر ونرى » .

ضم إليه ساشا وليدا اللتين تعلقنا برقبته . وقال :

« جدكما يرسل اليكما حبه . والخال فيودور يموت . وصلنى خطاب من العم كوستيا فى أمريكا ، وهو يرسل اليكما تحياته . وقد كتب يقول انه مل المعارض وسوف يعود قريبا . والخال الكسى جائع » .

جلس بعد ذلك فى الشرفة ورأى زوجته قادمة فى المر تسير ببطء فى اتجاه البيت . وبدت غارقة فى التفكير ، وبدا وجهها حزينا ساحرا ، وعيناها تفيضان بالدمع . لم تعد الآن فتاة نحيلة رقيقة شاحبة الوجه ، بل أصبحت سيدة ناضجة قوية وفاتنة . لقد لاحظ لابتيف تأثير جمال زوجته الجديدة على وجه يارتسييف المتأمل المشوق وهو يذهب للقائهما - فكأنه يراها الآن لأول مرة فى حياته . وبينما كانوا يتناولون الغداء فى الشرفة ، ارتسمت على شفتى يارتسييف ابتسامة سعيدة حية وهو جالس يحرق فى انثناء جيدها الرائعة . ولم يستطع لابتيف إلا أن يراقبه ، وهو يفكر فى ذات الوقت فى السنوات الثلاث عشرة أو ربما الثلاثين التى لعلها ما زالت أمامه . أشياء كثيرة جدا يمكن أن تحدث خلال هذه المدة . ومن يعلم ماذا يحمل المستقبل ؟

وقال لنفسه :

« سننتظر ونرى » .

« تمت »

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٨١/٢٩٦٥
الترقيم الدولي x - ٩٨ - ٧٠٢١ - ٩٧٧ ISBN

اشترك في روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

السيد / هاشم علي نجاس
جدة - ص ٠ ب رقم ٤٩٣
الملكة العربية السعودية
جدة :

M. Miguel Maccul Cury,
B. 25 de Marac, 990
Caixa Postal 7406.
Sao Paulo, BRASIL
البرازيل :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopstrove Road
London S.E. 26
ENGLAND
انجلترا :

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

هذه الرواية

« ثلاث سنوات - مشاهد من حياة عالمية » . كان هذا هو العنوان الذي اختاره الكاتب الروسي انطون تشيخوف « ١٨٦٠ - ١٩٠٤ » لهذه الرواية القصيرة .

خلال تلك السنوات أحب بطلها - ابن التاجر الثرى - ابنة طبيب بالاقليم ، وتزوجها وصحبها معه الى موسكو . غير أن الصورة الممنمة التي يرسمها الكاتب لتلك السنوات الثلاث تتطلع الى الوراثة والى الامام ، فترينا من أين جاء بطلا القصة ، وماذا سيصبحان في السنوات التالية ، هما من يحيط بهما في بيتي موسكو والمدينة الاقليمية .

وابرز شخصيات الرواية واقواها انرا هو بلاشك الاب التاجر الطاغية الذي تسمح له التقاليد القبلية البالية بممارسة استبداده على كل من حوله بمنتهى القسوة وبأسلوب خال من كل انسانية .

واذا كان نقاد العالم يضعون تشيخوف على رأس اساتذة القصة القصيرة ، فان الحلق الرائع الذي كتب به هذه الرواية يجعلها جديرة بالمقارنة بأروع نماذج « رواية الاجيال » . فاذا أضفنا اليها بقية روايات تشيخوف ومسرحياته المتميزة - فضلا عن قصصه القصيرة - أدركنا سر المكانة الادبية العظيمة التي يحتلها تشيخوف في الادب العالمي .